الفصل الأول

السيرة النبوية
والوعى العربى بالتاريخ

(١)

يرتبط تدوين السيرة النبوية بوعى العرب بمفهوم التاريخ من ناحية، كما يرتبط بوعيهم بحركة التدوين والتأليف من ناحية أخرى.

ومن المعروف أن ابن اسحق هو أول من دون سيرة الرسول عليه السلام، وكان كما قيل، من أكثر معاصريه جميعا حفظا لأخبار رسول الله وحديث مغازيه.

هو محمد بن اسحق بن يسار بن خيار، وكان جده يسار بن خيار مولى لقيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان هذا الجد من أصل فارسى، وأسر فى العام الثانى عشر من الهجرة فى قرية قريبة من الأنبار غرب الكوفة، وذلك عندما غزاها خالد بن الوليد وأخذ منها أسرى وسبايا. وهناك فى المدينة صار ولاء يسار إلى قيس ابن مخرمة وولد له هناك اسحاق ومن بعده محمد بن اسحق كاتب السيرة[١].

وقد ولد محمد بن اسحق فى عام ٨٥ هـ على الأرجح، وشب فى المدينة وأخذ يحصل العلم والثقافة على نحو ما كان يفعل علماء عصره، وكان القرآن الكريم قد دون منذ زمن مبكر على نحو علمى بحيث لم تترك فى تدوينه ثغرة للتدخل فيه، وبهذا اطمأن الجيل الأول من المسلمين الى أنهم قد أنجزوا الخطوة الأساسية

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة) المقدمة: جـ ١ ص ٢٤.

الأولى فى إرساء دعائم الاسلام بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان على تابعيهم بعد ذلك أن يواصلوا حركة التدوين والتأليف.

ولا بد أن الجيل الذى عاصره محمد بن اسحق فى المدينة كان يحفظ ما كان يحفظه الجيل الأول من الصحابة والتابعين، ولا بد أن هذا الجيل كان يستوعب بدرجات متفاوتة تراثا ضخما، جاهليا وإسلاميا، شعرا ونثرا. وقد كان الاستيعاب مصدره الرواية كما كان ذلك القدر الضئيل من التدوين.

وكان قد انقضى العصر الأول والمسلمون لايكتبون شيئا باستثناء ماكتبه عبد الله بن عمرو بن العاص فيما يقال. فقد روى البخارى عن أبى هريرة: «مامن أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا عنه منى إلا ماكان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[1]». ومن المعروف أن النبى عليه السلام نهى عن كتابة شئ غير القرآن. ولكن الرغبة فى التدوين مالبثت أن ألحت على نفوس أجيال المائة الثانية من الهجرة أو قبل ذلك بقليل عند ماهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث فكتب إلى واليه فى المدينة يقول: «انظر ماكان من حديث النبى صلى الله عليه وسلم ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لايعلم فإن العلم لايهلك حتى يكون سرا». (١)

عند ذاك بدأت حركة التدوين بتدوين الحديث فى شكل

(١) السيرة جـ ١ ص ١٢

أبواب، كل باب يجمع الأحاديث الخاصة به فباب فى الوضوء، وباب فى الصلاة، وباب فى الزكاة، وهكذا، وكان من بين هذه الأبواب باب فى أخبار رسول الله عن ولادته ورضاعته وبعثته وغزواته وجهاده، وقد سمى هذا الباب، باب المغازى والسير، وقد توسع فى هذا الباب الأخير فأصبح يضم أخبارا عن العصر الجاهلى مثل أخبار جرهم ودفن زمزم وغير ذلك من الأخبار، وقد عنى بهذا الموضوع جماعة من الصحابة والمحدثين عاشوا فى القرن الأول وحقبة من القرن الثانى، ولم ينقطع التأليف فى هذا الموضوع بعد ذلك.

ولولا حفظ الخلف عن السلف لهذه الروايات والأخبار لما وصلت إلى المؤرخين الكبار مثل الطبرى والبلاذرى وابن سعد والواقدى.

على أن السيرة التى وصلتنا كاملة، وهى سيرة محمد بن اسحق، وصلتنا عن طريق أبى محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى البصرى الذى توفى على الأرجح فى العقد الثالث من القرن الثالث الهجرى. وكان محمد بن أبى اسحق قد استقر فى العراق بعد طواف بين الاسكندرية والرى والكوفة والجزيرة والحيرة. وفى العراق أتيحت له فرصة الاتصال بالخليفة أبى جعفر المنصور الذى أمره أن يؤلف فى أخبار العرب. وفى ذلك يقول الخطيب البغدادى: «دخل محمد بن اسحق على المنصور وبين يديه ابنه

(١) السيرة جـ ١ ص ١٤.

المهدى فقال له: اتعرف هذا يا ابن اسحق؟ قال: نعم هذا ابن أمير المؤمنين قال: اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا، فذهب فصنف هذا الكتاب فقال: لقد طولته يا ابن اسحق اذهب فاختصره. فذهب فاختصره فهو هذا ـ الكتاب المختصر، وألقى الكتاب الكبير فى خزانة أمير المؤمنين[1].

ويشير هذا النص إلى أن أبا جعفر المنصور عند ما أمر محمد بن اسحق أن يؤلف لابنه كتابا فى التاريخ لم يطلب منه صراحة أن يؤلف كتابا فى السيرة النبوية، بل قال له «إذهب فصنف له (أى للمهدى) كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا» ومعنى هذا أنه طلب منه أن يؤلف كتابا فى التاريخ وهو يعنى بطبيعة الحال كتابا فى تاريخ العرب، ومن الطبيعى أن يكون جوهر الكتاب هو الرسالة المحمدية التى فصلت بين عصرين، عصر الجاهلية وعصر الإسلام. ويهمنا من هذا الخبر أنه يمثل لأول مرة مطلبا علميا لم يفكر فيه أحد من خلفاء المسلمين من قبل، إذ كان العرب ابتداء من العصر الجاهلى حتى العصر الأموى يعتمدون على الرواية فى نقل الأخبار التاريخية وكانت الأخبار التاريخية فى العصر الجاهلى تختص بأنساب العرب وأيامهم، ومثل هذه الأخبار لاتمثل تاريخ أمة. فضلا عن أنها ليست تاريخا كاملا، ولا يكون التاريخ متكاملا وقابلا للتدوين إلا عندما تعى الأمة ذاتها، وتعى ماضيها ومستقبلها.

ولم يكن الماضى بالنسبة للعربى الجاهلى قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة، بل كان مجرد تذكر مواقف بطولية عاشتها قبيلته. وهو يتذكرها إما من قبيل الفخر والزهو بحروبها ضد القبائل

(١) السيرة جـ ١ ص ٢٦

المعادية الأخرى، أو بقصد استثارة الهمم للدخول فى حرب جديدة معها. وأما المستقبل فقد كان غائبا بالنسبة له، وغياب هذا المستقبل كان مرتبطا بغياب النظام السياسى المتكامل الذى يجمع شمل العرب تحت تأثيره كما كان مرتبطا بغياب مفهوم متكامل لدين يقدم له مفهوما واضحا لعلاقته بالزمان والمكان ولغائية الحياة.

لقد كان الانسان الجاهلى يعيش فى زمن هو الزمن الحسى المرتبط بفترة بقائه فى الحياة، وهذه الفترة كانت معروفة البداية والنهاية، فبدايتها الميلاد ونهايتها الوفاء والعدم، وبتعبير آخر فإن الإنسان قدر له أن يوجد فى المكان لكى يملأه فلا يظل فراغا، ولكن هذا الوجود، فى حد ذاته، لم يكشف عن هدف محدد أو عن غاية تقنع الانسان بوجوده. ولهذا فقد أفاض الشعراء الجاهليون فى تعبيرهم عن هذا الإحساس، وليست المقدمة الطللية التى تغنى بها الشعراء فى مطالع قصائدهم سوى تعبير خصب عن تلك النهاية المحتمة وهى الفناء الأبدى، بل إن الشاعر الجاهلى كان يرى شبح الموت أمامه وهو فى غمرة النشوة والاستمتاع بالحياة. يقول عمرو ابن كلثوم فى معلقته:

وكأس قد شربت ببعلبك ... وأخرى قد شربت بقاصرينا
وإنا سوف تدركنا المنايا ... مقدرة لنا ومقدرينا

وإذا كانت نهاية الحياة تتحدد بهذا الزمن القصير، فإن وجود الإنسان فى الأرض عبث. ولا يمكن للإنسان وهو يعيش هذا القلق

وهذه الحيرة أن يجد فرصة للتأمل فى خلق الكون ووضع الإنسان فى هذا الكون وعلاقته بالزمن السرمدى. ذلك أن مشكلته كانت تنحصر فى هذا الإحساس المفزع بالزمن الحسى، أما الزمن الكونى الأبدى فلم يكن سوى تأكيد لمأساة الإنسان فى الأرض. حقا إن هناك شعرا قاله بعض الشعراء قبل البعثة المحمدية يشير إلى أى حد كان الجاهلى يتوق إلى حل يريح ذاته القلقة.ومن ذلك قول الشاعر:

ألا نبـى لنـا منـا فيخبرنا مابعد غايتنا من رأس مجرانا؟(١)

حقا إن هناك من الأساطير الجاهلية مايعبر صراحة عن نزوع الإنسان الجاهلى إلى تغيير معتقداته التى بدأ يتشكك فيها، ومن ذلك ماروى من أن قبيلة مراد كانت تعبد نسرا، وكان هذا النسر يأتيها فى كل عام فيُقرعون بين فتياتهم. فأيتهن أصابتها القرعة تقدم للنسر فيحجل نحوها ويأكلها، ثم يؤتى له بخمر فيشرب وينتشئ ثم يخبرهم بما يحدث فى عامهم المقبل ويطير.

ثم حدث أن جاءهم النسر كعادته. فأقرعوا بين فتياتهم، وأصابت القرعة إحدى الفتيات، وكان أبوها يعزها كثيرا، فحزن كل الحزن، فلما رأى رجال مراد ماهو عليه من حزن قالوا له:

ماذا لو فدينا ابنتك بابنة الهمدانية؟ وكانت هذه الإبنة الهمدانية ابنة لرجل مرادى وامرأة من قبيلة همدان، ثم توفى أبوها وبقيت الأم

(١) د. عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، انظر فصلى مغزى التاريخ والتفسير القرآنى للتاريخ.

فى قبيلة مراد. فقرّ رأى مراد على ذلك، ولما علمت الأم وابنتها بهذا الأمر ساءت حال الأم وأخذت البنت تبكى، وصادف هذا قدوم خال الإبنة لزيارة أخته، فلما رأى ماهما عليه من حزن سألهما عما بهما، ولكن الأم رفضت أن تبوح له بشئ. أما الابنة فإنها دخلت خباء وأخذت تقول الشعر بصوت عال لتسمع خالها، وعرف الخال القصة فقال لأخته: إذا جاءوك فادفعى إليهم ابنتك وأنا أتدبر الأمر بعد ذلك، فلما جاءوها دفعت إليهم ابنتها فدفعوا بها فى خباء النسر، فلما رأها النسر حجل نحوها، ولكن الخال كان يختفى داخل الخباء فرمى النسر بسهم أصابه وأرداه قتيلا، وأخذ أخته وابنتها وولى هاربا، فلما أدركت قبيلة مراد أن الحيلة قد تمت عليها غذت السير وراءهم ولكنها لم تدركهم. فكان هذا سببا فى اشتعال نار العداوة بين مراد وهمدان، إلى أن جاء الإسلام فحجر بينهما[1].

فنحن هنا بإزاء أسطورة متأخرة، ذلك أنه لابد أن تكون هناك أساطير سبقتها تحكى عن عبادة النسر وغيره من الآلهة. أما هذه الأسطورة فقد قضت على الإله، أى أن الإله قد مات، ولم يكن السبب فى موته سوى الإنسان، ومعنى هذا أن الانسان الجاهلى قد وصل إلى مرحلة الشك فى عباداته القديمة، وأنه أخذته الجرأة لأن يعترض عليها ويلغيها. فإذا ربطنا هذا الفعل بمهمة الإله النسر كما أفصحت عنها الأسطورة من أنه كان يعطى فى مقابل أن يأخذ، وأن ماكان يعطيه هو الكشف عن أحداث المستقبل للقبيلة، فإن دلالة هذا أن القبيلة لم تكون تتعب نفسها فى معرفة ماسيجد من أحداث.

(١) السيوطى ـ المزهر. الحلبى جـ ١ ص ١٦٤.

وبتعبير آخر أن الإنسان لم يكن يحس بمسؤليته فى صنع تاريخه، فلما قضى الإله نحبه ولم يعد هناك من يخبر القبيلة بأحداث المستقبل، كان على القبيلة أن تقوم بهذه المهمة بنفسها.

كل هذه الأخبار والروايات تؤكد أن العقلية العربية كانت فى طريقها إلى التحول، كما أنها تؤكد أنهم كانوا مايزالون يعيشون مرحلة عدم وضوح الرؤية بالنسبة لوعيهم بوجودهم.

(٣)

ثم جاء الإسلام ليغير هذا المفهوم من رؤية غامضة إلى رؤية واضحة. فالزمن ذو البعد الواحد أصبح ذا بعدين، زمن حسى وزمن كونى، ولا يمكن فصل الزمن النسبى الذى يرتبط بحياة الانسان فى الأرض عن الزمن السرمدى أو الكونى، الذى يرتبط بالبعث، وحيث أن الإنسان هو الذى سيبعث ليحاسب، فهو يهتم إذن بعلاقته بالزمن الكونى، أى بتلك اللحظة الحاسمة التى يدعى فيها ليحاسب على فعله فى الدنيا.

وهذا هو أول تغيير أدخله الإسلام على مفهوم العربى لوجوده فى الحياة، وهو مفهوم كفيل بأن يزيل الإحساس بالقلق. حيث أنه لم يوجد فيها إلا ليموت، ثم أكد الإسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسؤلية الإنسان فى الأرض، فهو لم يخلق إلا من أجل السعى وراء حياة أفضل، ولا يتحقق هذا إلا من خلال إعماله عقله فى اختيار العمل الصالح ونبذ العمل الطالح، وبهذا يكون الإنسان مسئولا عن النتائج بقدر ما يكون مسئولا عن المقدمات، كما أنه سيحاسب عما إذا

كان مايفعله وسيلة لبناء وليس معولا لهدم، ذلك أن الحياة بوصفها نظاما كليا لايمكن أن تستقيم إلا إذا رجحت كفة الخير على الشر، فإذا حدث عكس هذا واستشرى الشر بين قوم، أبادهم الله وأحل محلهم قوما آخرين، كما حدث لعاد وثمود وغيرهم.

وهكذا يرتبط أول الحياة بآخرها، وهكذا يرتبط فعل الإنسان فى الأرض بمعيار ثابت من القيمة. وهكذا يرتبط الإنسان بالله، وكل هذه المفاهيم جعلت الإنسان العربى يعيد تقييمه لموقفه من الحياة وقد ترتب على هذا أن أصبح هناك نظام شامل للمجتمع بأسره، وهذا النظام يخضع لمعيار الحق والخير الجماعى، وحاضر هذا النظام يعد حصيلة الماضى، كما أنه يرسم شكل المستقبل، ومعنى هذا أن الحياة سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من الماضى وتستمر إلى المستقبل وهذا هو جوهر التاريخ.

وربما احتوت قصة آدم فى القرآن الكريم وخروجه من الجنة ونزوله إلى العالم الأرضى كل هذه المفاهيم الإنسانية. فالقصة لم ترد على نحو ماوردت فى التوراة، على الرغم من تشابه القصتين فى خطوطهما العريضة، كما أن دلالتها تختلف كلية عن دلالة القصة التوراتية. فقد قال تعالى فى كتابه الكريم قبل أن يخلق آدم: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إنى أعلم مالا تعلمون﴾ (البقرة ٣٠) فهذا نص صريح على أن آدم خلق لكى يكون مكانه فى الأرض وليس فى السماء. ولم تكن إذن أحداث الجنة سوى برهان على أن آدم لم يخلق على نحو ما خلقت

الملائكة مبرأ من العيب، بل هو معرض للغواية، وعليه وحده أن يفصل بين الخير والشر، وبناء على ذلك فإن قصة آدم فى القرآن لم تهدف إلى إثبات خطيئة آدم كما أقرتها التوراة والإنجيل، بل إن ما فعله آدم يشير إلى طبيعة الآدمى ساكن الأرض.

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق فى صنعة آدم على هذا النحو، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾. وليست أسماء المسميات مجرد أسماء، ولكنها دليل على الإدراك الذى يميز بين الشئ وغيره، بل لنقل إنه العلاقة بين الإنسان والموضوع، وهنا يتمثل جوهر طبيعة الإنسان، وجوهر قيمة وجوده فى الأرض. ويتحدد هذا الجوهر بأن الإنسان فكر يتحرك فى كل ما حوله، وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل إلى الخارج، ومرة أخرى من الخارج إلى الداخل.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (البقرة ٣٧) ﴿وهكذا تنتهى قصة آدم بالتصالح بينه وبين ربه على أساس تحمله لتبعاته وإدراكه لمسؤلياته، ثم تحسم القضيةبقوله تعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ حقا إنها مسئوليات جسام تلك التى يحملها الإنسان على عاتقه فى الأرض، أليس هو المسئول الأول عن صنع حياته بل حياة الجماعة التى يعيش فيها؟ وإذا كانت حياة هذه

الجماعة ليست سوى حلقة من حلقات التاريخ البشرى أفلا يكون الإنسان مسئولا عن صنع تاريخ البشرية بأسره؟.

كل هذه المفهومات أصبحت واضحة فى عقل المسلم، بل إنه وسعها وصاغها على شكل مسائل فلسفية أو كلامية خاض فيها علماء الكلام والمعتزلة بعد قيام الدول العباسية، وبعد أن انتقل النشاط الأدبى والفلسفى كلية إلى البصرة ثم إلى بغداد.

وليس غريبا إذن أن يأتى مطلب كتابة التاريخ من خليفة عباسى هو أبو جعفر المنصور، وليس غريبا أن يطلب الخليفة المنصور من محمد بن إسحق أن يكتب هذا التاريخ لابنه المهدى. فالخليفة كان يفكر فى مسئوليته بقدر ما كان يفكر فى مسئولية ابنه الذى سيرث الخلافة من بعده. وهذا الابن، من وجهة نظر الأب، فى أشد الحاجة إلى العلم بأحداث الماضى للاعتبار بها فى صنع الحاضر والمستقبل، وقد سبق أن ذكرنا أن الخليفة لم يطلب من ابن إسحق أن يكتب السيرة النبوية، بل طلب منه أن يكتب له التاريخ، منذ خلق الله آدم إلى اليوم الذى يعيشه ابن إسحق، وهذا يكفى لأن نتمثل مقصد أبى جعفر المنصور فى أن يكون بين يدى ابنه كتاب يجمع بين ماضى الأمة العربية وحاضرها، وفى بؤرة هذا الماضى والحاضر تقع الدعوة المحمدية بطبيعة الحال، كما تقع أخبار النبى صلى الله عليه وسلم وغزواته وحكمه وتعليماته، فمن أجل هذه الدعوة تمت الفتوحات، ومن أجلها كبرت مسئولية الدولة الإسلامية وكبرت مسئولية الخليفة.

(٣)

على أن الرواية التى دونها ابن إسحق نقلا عن البكائى لاتحتوى على المادة التى طلبها المنصور من ابن إسحق. وإذا كان المنصور قد طلب من ابن إسحق أن يختصر تاريخه كما يقال فلا يعتقد أنه اختصر هذا التاريخ إلى حد أن قصره على السيرة النبوية، ولهذا فنحن نفترض أن ماحفظ عن ابن إسحق وعلى رأسهم البكائى كان يقتصر على السيرة النبوية، وهى التى دونها ابن هشام، فإبن هشام لم يؤلف كتاب فى تاريخ العرب، وإنما ألف كتابا فى السيرة النبوية. وإذا كان الجزء الأول من الكتاب الذى يحكى أخباراً قبل ولادة الرسول عليه السلام وبعدها إلى أن نزل عليه الوحى، يرتبط بتاريخ العرب قبل الإسلام، فإن ابن هشام وظف هذا الجزء توظيفا جيدا لخدمة السيرة النبوية. والغرض من هذا هو إبراز المثل الأعلى ممثلا فى شخصية الرسول عليه السلام، فنحن فى عصر شعر الشعب العربى فيه أنه فى أشد الحاجة إلى تمجيد البطولة العربية وتأكيدها، وربما كانت السيرة النبوية بداية تمجيد البطولات العربية فى ضوء المثل الإسلامية، فعنترة الشاعر المحارب فى العصر الجاهلى زحزحته سيرة عنترة زمانيا ومكانيا، فجعلت بطولته تتجاوز الجزيرة العربية، كما جعلت رسالته إنسانية، فقد كان على عنترة أن ينشر الحق والعدل من خلال دفاعه عن قضية الإنسانية جمعاء. وحيث أن جوهر الاسلام هو الحق والعدل، فإن عنترة، إذ فعل هذا، كان يمهد الفكر العربى لقبول الدعوة الإسلامية.

وربما بدأت فى هذا العصر كذلك سيرة الأميرة ذات الهمة ومحمد البطال، فالسيرة تحكى عن الصراع بين العرب والروم، ولم

تكن الحرب بينهما بين دولتين، بل كانت أساسا بين دينين، إلى حد أن عدها المؤرخون بداية الحروب الصليبية، كما زحزحت سيرة عنترة بطلها من فكرة عصره الفوضوى إلى فكر إنسانى منظم، كذلك زحزحت سيرة الأميرة أبطالها من مكانهم قلب الجزيرة العربية وجعلتهم يقيمون فى مناطق الثغور، حيث تدور رحى الحرب بين العرب والروم، أو لنقل بين الإسلام وأعدائه، وكل هذه النماذج البطولية تكشف عن رغبة جمعية فى تأكيد البطولة الإسلامية التى يقف على قمتها الرسول عليه السلام.

ونعود إلى سيرة ابن هشام فنجده يرتب الأحداث بحيث يلتحم بعضها مع بعض فى تكوين ملحمى، فهو يبدؤها برفع نسب الرسول عليه السلام فى إيجاز بالغ إلى إسماعيل ثم إبراهيم ثم آدم، ثم يستطرد بعد ذلك من ذكر الأخبار التى تكشف عن حركة الحياة الفكرية فى الجزيرة العربية قبل ولادة الرسول عليه السلام بزمن، ثم بعد ولادته إلى أن نزل عليه الوحى.

وتتوزع الحوادث التى تأتى بها السيرة فى سبيل الكشف عن هذه الحركة الفكرية إلى ثلاثة أنماط من الأخبار، تسهم جميعا فى الأبانة عن روح الحياة السائدة فى عصر ماقبل الإسلام. فهناك الأخبار التى تتحدث عن بعض جوانب الحياة القبلية، وتلتقط السيرة من هذه الأخبار ما يمكن أن يدخل فى نسيج السيرة النبوية، أى تلك التى تكشف الستار عن طبيعة الدين الذى كان يدين به العرب، أو لنقل مجموعة المعتقدات التى تكيف حياة العربى.

وهناك الأخبار التى تكشف القناع عن الأديان السماوية التى سبقت الإسلام، وكانت هذه البقايا تعيش منزوية عن المناخ الدينى العام، فإذا ماكشف حوربت، وهناك أخيرا الأخبار التى تشير إلى مجموعة النبوءات المبشرة بظهور الدعوة المحمدية.

فمن الأخبار الأولى ما يحكى عن الصراع بين عبد مناف وعبد الدار حول أحقية كل منهما بسدانة الكعبة، «فعقد كل قوم على أمرها حلفا مؤكدا على أن لايتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا.. فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فيزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتها لهم فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم، فسموا المطيبين». (١)

فمثل هذا الخبر يكشف عن شكل من أشكال الصراع القبلى حول الزعامة. وهو يكشف فى الوقت نفسه عن معتقد سحرى يندرج تحت مايسمى بسحر المشاركة، فإذا اجتمعت أيدى القبائل فى جفنة واحدة مملؤة بالطيب. فهذا الفعل ينتقل بتأثير السحر إلى شعورهم بالالتزام بوحدتهم. كما أن غمس الأيادى فى الطيب معناه أن ما يفعلونه ستفوح رائحته مثل الطيب، وكذلك يشير فعل مسح الأيادى المتطيبة فى الكعبة إلى هذا الشعور الطيب إزاء الرمز المقدس.

ومن هذه الأخبار كذلك خبر حفر بئر زمزم. فقد جاء الهاتف إلى عبد المطلب جد الرسول عليه السلام بأمره بحفر بئر سميت فى

(١) السيرة جـ ١ ص ١٤٣.

الليلة الأولى طيبة، وسميت فى الليلة الثانية برة، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أمره الهاتف بحفر زمزم. فلما سأله عبد المطلب، وما زمزم؟ قال له الهاتف: «لاتنزف أبدا ولاتذم»، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم، عند ثغرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل»[1].

فلما تحددت البئر على هذا النحو، شرع عبد المطلب فى حفرها، ولكن قريشا طلبت منه أن تشاركه هذا الحفر، فقال: «ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، فقالوا له: «فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها»، قال: «فاجعلونى بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه». قالوا: «كاهنة بنى سعد هذيم». قال: «نعم» فسار جمع عبد المطلب وجماعة قريش حتى إذا كانوا فى منتصف الطريق نفد الماء من جماعة عبد المطلب فطلبوا السقيا من جماعة قريش، فأبوا أن يمدوهم بالماء. وكاد قوم عبد المطلب يهلكون من العطش، واستقر رأيهم على أن يظلوا فى مكانهم حتى يدفن بعضهم بعضا. ولكن عبد المطلب قر رأيه بعد ذلك على ألا يستسلموا لمصيرهم، وأن يواصلوا السير، وما كاد عبد المطلب يمتطى صهوة جواده، وأثار الجواد الغبار من تحت رجله، حتى انبجست عين من الماء تحت حوافره. عند ذلك قالت قريش: «والله لقد قضى لك علينا ياعبد المطلب. والله لانخاصمك فى زمزم أبدا. إن الذى سقاك الماء بهذه

(١) السيرة جـ ١ ص ١٥٤.

الفلاة لهو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا». فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينها وبينه»[1].

ويفيد هذا الخبر السيرة من جوانب عدة: أولا ـ أن هذا الحدث تم مع جد الرسول عليه السلام، وفى هذا تأكيداً لأصالة سلالة النبى عليه السلام. ثانيا ـ أنه يمثل بداية المعجزات التى تمت مع جده ومع أبيه من بعده، كما سنرى. ثالثا: أنه يشير إلى الروح القبلية ممثلة فى صراعاتهم على الزعامة، وممثلة فى معتقداتها، ذلك أن الحسم فى هذا الموضوع كان سيتم على يد كاهنة بنى سعد. وما كانت ستقوله هذه الكاهنة كان سيكون ملزما للطرفين، لولا أن المعجزة تمت فحسمت الأمر.

وإذا كان الحدث السابق يتركز حول عبد المطلب جد الرسول عليه السلام فإن الحدث التالى يتركز حول والده عبد الله، «وكان عبد المطلب بن هاشم فيما يزعمون، والله أعلم، قد نذر حين لقى من قريش مالقى عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثم يبلغون معه حتى يمنعوا لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ويكتب عليه اسمه ثم ائتونى، ففعلوا، ثم أتوا، فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة..فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذى نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه. وكان عبد الله

(١) السيرة جـ ١ ص ١٥٦.

أصغر بنيه.. كان فيما يزعمون، أحب ولد عبد المطلب إليه، وكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطاه فقد أشوى» «أى قد أبقى»، ولكن القدح خرج على عبد الله، فهم عبد المطلب بذبحه، ولكن قريشا وبنيه اعترضوه ونصحوه أن يرحل إلى عرافة فى الحجاز لها تابع فيسألها عما هو فاعل، فرحل إليها. وقالت له: ارجعوا حتى يأتينى تابعى فأسأله. فرجعوا من عندها. فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله. ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءنى الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، وكانت كذلك قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها القداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم وينجى صاحبكم»[1] فعاد الجميع إلى مكة ثم ضربوا القداح فخرجت على عبد الله، فأخذوا يزيدون فى الإبل، وكانت فى كل مرة تصيب عبد الله حتى بلغت الإبل مائة. وبعدها ضربوا القداح فخرجت على الإبل، فأعادوا ضرب القداح فخرجت على الابل، فهلل الجميع وقالوا لعبد المطلب: قد انتهى رضى ربك ياعبد المطلب. ثم نحرت الإبل تضحية للإله.

فهذا الخبر يؤكد مثل سابقه معتقدات العرب قبل الإسلام، وهى تلك المعتقدات التى ألغاها الإسلام من بعد، كما أنها تؤكد المعجزة التى تمت مع والد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتنتمى إلى مجموعة هذه الأخبار الأولى أخبار أخرى لاصلة لها بالسيرة النبوية، ولكنها تأتى لتؤكد ماكان عليه العرب الجاهليون من

(١) السيرة جـ ١ ص ١٦٤.

عبادة الأوثان، فمن ذلك ماروته السيرة من أنه كان لبنى ملْكَان بن كناية بن خزيمة بن دركة بن إلياس بن مضر صنم يقال له سعد، هو صخرة بفلاة من أرضهم الطويلة. فأقبل رجل من بنى ملكان بإبل له مزبلة ليقفها عليه التماسا لبركته، فيما يزعم. فلما رأته الإبل وكانت مرعية لاتركب، وكان يراق عليها الدماء، نفرت منه فذهبت فى كل وجه، وغضب ربها الملكانى، فأخذ حجرا فرماه به، ثم قال: لابارك الله فيك! نفّرت على إبلى. ثم خرج فى طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لايدعو لغى ولارشد[1]

كما تروى السيرة على سبيل تعليل وجود بعض الأصنام فى مكان محدد: وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم، فوقع أساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين[2]، وعلى الرغم من هذا الفعل الآثم الذى ارتكبه إساف ونائلة، وعلى الرغم من مسخ الله لهما كما تروى الأسطورة، فقد أصبح أساف ونائلة صنمين يعبدان عند زمزم، وتنحر لهما الذبائح.

أما النوع الثانى من الأخبار فتمثله تلك الأخبار التى تختص بهؤلاء الذين يدينون بالدين المسيحى السليم، الذى يدعو إلى عبادة

(١) السيرة جـ ١ ص ٨٥.
(٢) السيرة جـ ١ ص ٧٦.

الإله الواحد. فإذا ظهر أحد من هؤلاء ودعا الناس إلى دينه، حورب، وتظل حكايته ترويها الأجيال. ومثال هذا حكاية عبد الله بن الثامر التى ترويها السيرة فى جزءها الأول، وكان عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا بها إلا قال: «ياعبد الله أتوحد الله وتدخل فى دينى وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول نعم، فيوحد الله ويسلم، ويدعو له فيشفى، حتى لم يبق بنجران أحد فى ضر إلا أتاه فاتبعه على أمره ودعا الله فعوفى، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه وقال: أفسدت علىّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى، لأمثلن بك. فقال: لاتقدر على ذلك. قال: فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لايقع فيها شئ إلا هلك، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك والله لن تقدر على قتلى حتى توحد الله بما آمنت به فإنك إن فعلت ذلك سلطت على فقتلتنى قال: فوحد الله تعالى ذلك الملك وشهد عبد الله بن الثامر. ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله، ثم هلك الملك مكانه. واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر. ثم إن «رجلا من أهل نجران كان فى زمان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجدوا عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعدا واضعا يده على ضربة فى رأسه ممسكا عليها بيده، فإذا أخرت يده عنها تنبعث دما وإذا أرسلت يده ردها عليها فأمسكت دمها. وفى يده خاتم مكتوب فيه «ربى الله» فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبر

بأمره فكتب إليهم عمر رضى الله عنه أن أقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذى كان عليه ففعلوا[1]. ثم نأتى إلى النوع الثالث من الأخبار التى يحتوى عليها الجزء الأول من السيرة، الذى يمهد لولادة الرسول عليه السلام. وهذا النوع خاص بالأمارات المبشرة بظهور نبى من بين العرب. فمن ذلك ماتحكيه السيرة عن رؤيا ربيعة ابن نضر ملك اليمن، فقد رأى ربيعة رؤيا أزعجته فنصحه أتباعه أن يرسل فى طلب شق وسطيح الكاهنين ليفسراها له، فحضر سطيح أولا وأخبر ربيعة بالرؤيا قبل أن يخبره هو بها، وقال: «رأيت حممة، خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة»، وكانت هى الرؤيا بعينها التى رآها ربيعة. ثم أخذ سطيح بعد ذلك فى تفسيرها فقال له: إن الأحباش سيغزون اليمن بعد بضع وسبعين من السنين، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين، فسأله ربيعة: ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم قال: يليه إرم بن ذى يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفيدوم ذلك من سلطان أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبى زكى يأتيه الوحى من قبل العلى. قال: ومن هذا النبى؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون[2].

وبعد مدة وصل شق فقال ما قاله سطيح أوكاد.

(١) السيرة جـ ١ ص ٣٤.
(٢) السيرة جـ ١ ص ١١.

ثم تستطرد السيرة إلى ذكر ولادة الرسول عليه السلام وحياته فى مكة قبل أن يهبط عليه الوحى، ومن الطبيعى أن الأخبار التى تحكى عن هذا الموضوع تدور جميعها حول النبوة المستقبلية، ومن الطبيعى أن تتوافر الأخبار وتتضخم بحيث يصعب التمييز فيها بين الواقع والخيال. ولهذا فإن ابن هشام كثيرا مايفتقد السند الذى يرتكز عليه لدعم الخبر، فيقول على سبيل المثال فى خبر حمل آمنة بنت وهب بالرسول عليه السلام «ويزعمون فيما يتحدث الناس، والله أعلم، أن آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث أنها أُتيت حين حملت برسول الله صلى عليه وسلم فقيل لها. إنك قد حملت بسيد هذه الأمة. فإذا وقع على الأرض فقولى: أعينوه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سمه محمدا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام»(١).

وتروى السيرة كذلك عن حليمة مرضعة الرسول عليه السلام، أنها قالت: «فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (سطنت اللبن والدم وغيرهما أسوطه إذا ضربت بعضه ببعض وحركته). قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه

(١) السيرة جـ ١ ص ١٧٠.

قالت: فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يابنى؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعانى وشقا بطنى فالتمسا (فيه) شيئا ولا أدرى ماهو قالت: فرجعنا إلى خبائنا قالت وقال أبوه: ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به (١).

ثم تتوالى معجزات النبى. وكلما كبر وتوالت معجزاته كان إما أن يتعرف نبوته أهل الكتاب وينصحون عمه أبا طالب أن يخفى أمره عن اليهود حتى لايتعرض لأذاهم، إذ أنهم يعرفون أن كتابهم قد بشر به، أو قد تحدث ظواهر كونية لم تحدث من قبل كما حدث للحية التى كانت تسكن بئر الكعبة وتحول دون تسقيفها، مهددة كل من يقترب منها، «فبينما هى ذات يوم وتتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا»(٢) .وإما أن تحدث للنبى نفسه معجزات قبل نزول الوحى عليه، كتلك التى ذكرناها سابقا، أو ماذكره كذلك ابن إسحق نقلا عن بعض أهل العلم من «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يارسول الله. قال: فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم. كذلك يرى

(١) السيرة جـ ١ ص ١٧٦.
(٢) السيرة جـ ١ ص ٢٠٩.

ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان»[1].

ثم يهبط الوحى على الرسول عليه السلام وتبدأ الرسالة، وهنا تفسح السيرة المجال للتاريخ فتحكى عن وقائع الصراع بين الرسول عليه السلام ومن تبعه من ناحية، وقريش ومن تبعها من ناحية أخرى، ولكن ابن اسحق يأتى بين الحين والآخر بما سمعه عن معجزات تمت بعد الدعوة، ولا يسع ابن هشام إلا أن يرويها بسندها الذى ذكره محمد بن اسحق، فهذه رواية يحكيها محمد بن إسحق عن أبيه إسحق بن يسار، قال: «كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم ابن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش، فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال: إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ماأقول حق؟ قال: نعم. قال: فقم حتى أصارعك، قال: فقام ركانة إليه فصارعه، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه وهو لايملك من نفسه شيئا. ثم قال: عد يا محمد. فعاد فصرعه. ثم قال: يا محمد والله إن هذا للعجب أتصرعنى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى. قال: ماهو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى. قال أدعها. فدعاها فأقبلت، حين وقفت بين يدى رسول

(١) السيرة جـ ١ ص ٢٥٣

الله صلى الله عليه وسلم. قال: فقال لها: ارجعى الى مكانك. قال: فرجعت إلى مكانها. قال: فذهب ركانة إلى قومه. فقال: يابنى عبد مناف، ساحروا بصاحبك أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع»[1].

ثم توجت معجزات الرسول عليه السلام بالإسراء والمعراج. وتكثر فى هذه الحادثة المعجزة الروايات والأقوال: فمما رواه ابن إسحق نقلا عن ابن مسعود أنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق، وهى الدابة التى كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها فى منتهى طرفها، فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه ابراهيم الخليل وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء، قد جمعوا له فصلى بهم، ثم أتى بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فسمعت قائلا يقول حين عرضت علىّ: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته، فقال: فأخذت إناء اللبن فشربت منه، فقال لى جبريل عليه السلام: هديت أمتك يامحمد»[2].

وفى رواية أخرى نقلها ابن اسحق عن الحسن أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أنا نائم فى الحجر إذ جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه فجلست، فلم أر شيئا، فعدت إلى مضجعى، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست، فلم أر شيئا، فعدت إلى

(١) السيرة جـ ١ ص ٤١٨.
(٢) السيرة جـ ٢ ص ٣٠٢.

مضجعى، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست، فأخذ بعضدى، فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة لونها أبيض بين البغل والحمار، فى فخذيه جناحان يحفر بهما رجليه يضع يده فى منتهى طرفه، فحملنى عليه ثم خرج معى، لايفوتنى ولا أفوته»(١).

وفى رواية ثالثة عن قتادة أنه قال: «حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما دنوت منه لأركبه شَمَس، فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: ألا تستحى يابراق مما تصنع؟ فوالله يابراق ماركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه. قال: فاستحى حتى ارفَّض عرقا، ثم قر حتى ركبته».(٢)

ثم يأتى ابن اسحق برواية أخيرة عن بعض آل أبى بكر عن عائشة أنها قالت: «مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أسرى بروحه»(٣).

هذا بالنسبة للإسراء، أما ماقيل فى المعراج فهو كثير، ونحن نكتفى برواية الأخبار المسندة التالية لأنها لعبت دورا كبيرا فى الروايات الشعبية. فقد روى ابن اسحق قال: «وحدثنى من لا أتهم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لما فرغت مما كان فى بيت المقدس أتى بالمعراج ولم أر شيئا قط أحسن منه، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدنى صاحبى فيه حتى انتهى بى إلى باب من أبواب

(١) السيرة جـ ٢ ص ٣.
(٢) السيرة جـ ٢ ص ٣، ٤.
(٣) السيرة جـ ٢ ص ٥.

السماء يقال له باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له: إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملَك، تحت يدىْ كل ملَك منهم اثنا عشر ألف ملك. قال: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث بهذا الحديث: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾. قال فلما دخل بى قال: من هذا ياجبريل؟ قال: محمد، قال: أو قد بعث؟ قال نعم: فدعا لى بخير وقاله».[1]

ثم يستطرد ابن اسحق فيقول: وحدثنى بعض أهل العلم عمن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: تلقتنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقنى ملك إلا ضاحكا مستبشرا، يقول خيرا ويدعو به. حتى لقينى ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل مادعوا به، إلا أنه لم يضحك ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره، فقلت لجبريل: ياجبريل! من هذا الملك الذى قال لى كما قالت الملائكة ولم يضحك، ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم؟ قال: فقال لى جبريل: أما إنه لو كان ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك. هذا مالك خازن النار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لجبريل وهو من الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم (مطاع ثم أمين) ألا تأمره أن يرينى النار، فقال: بلى. يا مالك أرِ محمدا النار، فقال: فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى. قال: فقلت لجبريل: ياجبريل مره فليردها إلى مكانها، قال: فأمره فقال لها: إخبى! فرجعت إلى مكانها الذى

(١) السيرة جـ ٢ ص ١٠ ـ ١١.

خرجت منه، فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها[1].

ثم يستطرد ابن إسحق فى ذكر مارآه الرسول عليه السلام فى السموات نقلا عن الأحاديث المروية. فقد رأى فى السماء الأولى الذين يضربون بسوءاتهم. فمن أكلة أموال اليتامى إلى أكلة الربا. إلى أهل الزنا، إلى النساء غير الشريفات، وغير ذلك .. أما فى السماء الثانية فقد رأى عيسى عليه السلام، وفى الثالثة رأى يوسف، وفى الرابعة رأى إدريس، وفى الخامسة رأى هرون بن عمران، وفى السادسة رأى موسى بن عمران، وفى السابعة رأى إبراهيم أبا الأنبياء.

ونكتفى بهذا القدر من الأخبار التى رويت بالسيرة، لأن مايلى ذلك فى السيرة النبوية المدونة عن ابن إسحق يفرغ لتاريخ الدعوة: كيف حوربت، وكيف انتشرت، وكيف هاجر المسلمون إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ثم يلى ذلك تاريخ غزوات الرسول عليه السلام شرقا وغربا حتى وفاته عليه السلام.

ونحن إذ نهتم بذكر هذه الأخبار السالفة فى السيرة فلأنها كانت تختص بحقبة حاسمة فى تاريخ الدعوة، وهى التى وقف منها الناس من بعد يتأملونها ويجيلون الفكر بين ماهو قائم وما سيكون. ولهذا فهى حقبة لا تمتلئ بالأحداث بقدر ماتملئ بالصراعات النفسية. ثم تأخذ الدعوة بعد ذلك فى الاستقرار تدريجيا، ويصبح الصراع صراعا حربيا بين جماعتين إحداهما آمنت وكونت جيشا بقيادة الرسول عليه السلام، والأخرى لاتريد أن تستسلم فتكون جيشا يقف

(١) السيرة جـ ٢ ص ١٠ ـ ١١.

مناوئاً للقوة المسلمة، وعندما يستقر الإسلام وينتصر المسلمون وتنتشر الدعوة فى الداخل وتأخذ فى الانتشار فى الخارج. ويصبح للدولة كيان سياسى ودين رسمى هو الإسلام، تظل الألسنة تردد أخبار هذا التاريخ الطويل، وتظل شخصية الرسول عليه السلام هى شخصية البطل المثالى، وحين يتعلق الشعب بشخصية البطل المثالى فإن الروايات تكثر، كما هو الحال فى القصص البطولى الذى تلا ذلك حول شخصية البطل من قبل ولادته، ثم فى أثناء ولادته، وبعدها، حتى يصبح بطلا محاربا يخوض المعارك لينتصر وينصر قومه، ولهذا فإن الحقبة الأولى من حياة البطل قبل قيامه بالحروب تحفل دائما ـ بروايات كثيرة، ذلك أن البطل ـ المنقذ لأمته، الذى يدعو بدعوة جديدة، تلغى القديم البالى وتحل محله الجديد النافع ـ هذا البطل لابد أن يكون مختارا بعناية آلهية، ولابد أن تكون هناك بشارات بميلاده، ثم إن ميلاده لابد أن يكون معجزا، وتستمر الروايات التى تكشف عن تميزه دينيا واجتماعيا حتى يثبت كل هذا عمليا من خلال عمله البطولى.

وليس غريبا أن تحفل القصة النبوية المروية فيما بعد بهذا الجزء من السيرة بصفة خاصة ولاتحفل بالغزوات، وربما استغلت الغزوات فى رواية قصص بطولى فيما بعد، كما سنرى وشيكا، ولكن مثل هذه الروايات انتشرت لأسباب حزبية ثم دونت بعد ذلك، أما الرواية التى ماتزال تروى فى المناسبات الدينية بصفة خاصة فهى تلك التى تختص بأحداث الجزء الأول والثانى من السيرة، قبل أن تبدأ الغزوات، وهما الجزءان اللذان يحفلان بصفة خاصة بالمعجزات،

ونحن نفترض أن ابن إسحق كان أطال هذا الجزء من السيرة أكثر من ذلك، ولكنه اختصره بأمر من المنصور، ومع ذلك فقد وجد ابن هشام نفسه أمام روايات كثيرة، بعضها ضعيف السند أو قد يرفضه العقل كلية، ولهذا فقد صرح فى مقدمة كتابه بأنه سيترك لنفسه حرية التصرف فى مثل هذه الروايات فقال: «وإنا ـ إن شاء الله ـ مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار، إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شئ، وليس سببا لشئ من هذا الكتاب، ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه»[1].

ولهذا فإننا نجد أن ابن هشام حريص على ذكر السند، ضعيفا كان أم قويا، فإن لم يجد سندا فإنه يبدأ الخبر بعبارة (ويزعمون والله أعلم)، ثم يترك القارئ يميز بين الخبر القوى والضعيف من خلال درجة السند، وابن هشام إذ يفعل هذا إنما يفعله بتأثير الاتجاه العقلى الذى ساد فكر العرب آنذاك.

ونحاول الآن تقديم بعض الروايات الشعبية المدونة والمروية لنرى:

أولا: الموضوعات الأساسية التى ترتبط بالسيرة من قريب أو من بعيد،

(١) السيرة المقدسة ص ١٩.

والتى شغلت ضمير الشعب العربى فصاغ حولها قصصا مختلفة.

ثانيا: كيف ضخم الخيال الشعبى بعض الأحداث التى وردت فى السيرة ولماذا؟

ثالثا: ما النمط الذى يروى اليوم ويحرص الشعب على روايته فى المناسبات الدينية.

(٦)

أولا:

أما الموضوع الذى أفاضت فيه الروايات العربية متأثرة بالسيرة النبوية فهو موضوع قصص الأنبياء، فقد سبق أن ذكرنا أن السيرة النبوية حرصت على أن تبدأ من الأجداد الأنبياء، فرفعت نسب الرسول عليه السلام إلىٰ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، بل إن كتّاب التاريخ مثل الطبرى كانوا يبدأون تاريخهم بآدم ثم يتسلسلون بالتاريخ حتى الرسول عليه السلام، لاغرو أن يهتم الضمير العربى بقصص الأنبياء، بخاصة هؤلاء الذين خصهم القرآن الكريم بكثير من الآيات، ويهمنا أن نعرف كيف صاغ الخيال الشعبى مثل هذا القصص متأثرا بالسيرة النبوية بصفة خاصة، وبحسه الإسلامى بصفة عامة.

ولنتخذ من قصة إبراهيم عليه السلام نموذجا لهذا القصص[1]

(١) قصة سيدنا ابراهيم: وهى قصة تقع فى ست عشر صفحة ـ المكتبة التجارية القاهرة.

وهنا نجد أن القصة تحذو حذو السيرة النبوية فى بنائها العام، وتتلخص الخطوط الأساسية لهذا البناء فيما يلى:

١ ـ الإشارة إلى الحياة الدينية التى كان عليها الناس قبل ولادة النبى وبعدها.

٢ ـ ولادة النبى المعجزة والبشائر التى تبشر بولادته.

٣ ـ نمو وعى النبى بما عليه قومه من كفر وطغيان.

٤ ـ بدء معركة الصراع بين قومه.

٥ ـ انتصاره عليهم.

٦ ـ وفاته بعد أن يخلف وراءه من يحمل الرسالة.

وكما أن السيرة تهتم بحياة الرسول الخاصة التى لاتنفصل بحال من الأحوال عن رسالته الدينية، كذلك اهتمت سيرة إبراهيم عليه السلام فحكت عن زواجه وعن أسفاره، وعن علاقته بأبنائه، وبذلك تتكامل السيرة من بدايتها إلى نهايتها.

كما يتمثل تأثر قصة إبراهيم عليه السلام بالسيرة النبوية فى استغلال بعض موضوعاتها الأساسية، ومثال ذلك استغلالها لموضوع الإسراء، فهى تحكى نقلا عن محمد بن إسحق أن إبراهيم كان «إذا اراد زيارة هاجر وإسماعيل حمله البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله فى الشام».

وإذا كانت السيرة النبوية قد ذكرت حديثا رفعته إلى عائشة أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلام كثيرا ما أسمعه

يقول: أن الله لم يقبض نبيا حتى يخبره»،[1] فإن قصة إبراهيم تستغل هذا الحديث فى إدارة حوار بين إبراهيم وملك الموت الذى جاءه متنكراً ولم يقدم على قبض روحه إلا بعد أن طلب إبراهيم منه ذلك.

أما الأثر الإسلامى العام فيتضح من خلال ربط قصة إبراهيم عليه السلام بما ورد فى القرآن الكريم من آيات بحيث استنفدت القصة جميع الآيات التى وردت عن الرسول الكريم فى نسيج أحداثها، بل إنها لخصت صفات النبى ومعالم شخصيته، مستعينة بما ورد فى القرآن الكريم من صفات، فهى تقول أنه النبى تجرى ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضيله وتبجيله فى كل أمة، وذلك بدعائه عليه السلام ﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾ وهو المبتلى بأنواع البلا، والمشهود له بالوفا، قال الله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾، وقال تعالى ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾، أى بما أمر به وهو القانت، قال الله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾. وهو أول من أقام المناسك بدعائه حيث قال: ﴿وأرنا مناسكنا﴾، فاستجيب له، وهو أول من ضحى، وأول من ألقى فى النار، وأول من أحيا الله له الموتى بسؤاله، حيث قال: ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾، وأول مهاجر لله، وسماه حليما ومنيبا وأوابا، قال الله تعالى: ﴿إن ابراهيم لحليم أواه منيب﴾ وبالإضافة إلى كل هذه العناصر التى استغلتها قصة إبراهيم، هناك الروايات التى

(١) السيرة جـ ٤ ص ٣٤٢.

مصدرها الخيال الشعبى. وعندما تلتحم هذه العناصر الخيالية بتلك التى استمدها الرواة من السيرة والقرآن الكريم فإن السيرة تبدو فى مجملها فى اطارها التاريخى، كما يبدو الحديث الغريب كأنه طبيعى عندما يؤدى دوره فى نسيج القصة.

ونحاول الآن أن نقدم ملخصا لقصة إبراهيم عليه السلام لنرى كيف استطاعت أن تجمع بين هذه العناصر جميعا فى اطار قصصى متكامل.

كان مولد إبراهيم عليه السلام فى عصر الملك النمرود الذى عرف بكفره وطغيانه، والذى حذره المنجمون من أنه سيولد فى بلده فى ذلك العام غلام يغير دين أهل الأرض، ويكون هلاكه وزوال ملكه على يديه، ويقال: «رأى النمرود فى منامه كوكبا طلع فذهب منه نور الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، فقال له الكهنة: هو مولود يولد فى هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه». (نلاحظ هنا تشابها بين هذه النبوءة ونبوءة ملك اليمن قبل أن يولد النبى عليه السلام بسنين طويلة). عندئذ أمر النمرود بذبح كل غلام يولد فى تلك السنة. وحملت أم ابراهيم، ثم ولدته وأخفته فى مغارة، وكانت كلما دخلت عليه وجدته يمص أصابعه، فكان إصبع يدر له اللبن والثانى العسل والثالث السمن والرابع الماء والخامس الخمر، وكان اليوم على إبراهيم كالشهر، والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم فى المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء إلى أبيه فأخبره أنه ابنه (خيال يعتمد على موضوع الطفولة المعجزة). فلما شب عن الطوق أتته أمه يوما فقال لها: «ياأماه من ربى؟ قالت:

أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبى؟ قالت: النمرود. قال: فمن رب النمرود؟ فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن ربى أبى؟ قالت: النمرود؟ قالت: أسكت، فسكت. فرجعت إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذى كنا نتحدث عنه أنه يغير دين أهل الأرض؟ إنه ابنك؟.

وتفكر إبراهيم فى خلق السموات والأرض فرأى الكوكب قبل القمر، قال: هذا ربى، فذلك فى قوله تعالى: ﴿فما جن عليه الليل رأى كوكبا قال: هذا ربى﴾، فلما غرب قال: لا أحب ربا يغيب، ﴿فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربى﴾، فلما غرب قال: ﴿لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين﴾. ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر﴾، فلما غربت قال: ﴿ياقوم إنى برئ مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾.

وكان قومه يعبدون الأصنام، فكان أبوه يصنعها ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فكان ينادى قائلا: من يشترى ما يضر ولا ينفع؟ فلا يشترى أحد. (وحاجه قومه). فقال لهم: اتحاجوننى فى الله وقد هدانى، ثم دعا أباه آزر إلى دينه وقال له: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يضر ولا ينفع﴾، فأبى أبوه الإجابة، فبلغ ذلك النمرود فدعاه إليه فقال: من ربك؟ قال: ﴿ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت﴾، آخذ الرجلين قد استوجبا القتل فى حكمى، فأقتل أحدهم وأعفى عن الآخر، فأكون قد أمت وأحييت، فقال له إبراهيم ﴿إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر﴾، أى النمرود.

ثم أن إبراهيم أراد أن يظهر الحجة عليهم، فلما كان يوم عيدهم خرجوا ولم يبق أحد، وأخذ أبو إبراهيم ابراهيم ابنه معه، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: (إنى سقيم) أشتكى رجلى، فتركوه وذهبوا، فدخل بيت الأصنام وكسرها جميعا، تاركا كبير الأصنام بعد أن علق فى رأسه الفأس، فلما رجع القوم ودخلوا بيت الأصنام هالهم ما رأوا، وتساءلوا عمن يمكن أن يكون قد فعل هذا بآلهتهم، فرد قوم ﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾. فأمر بإحضاره، وسأله النمرود: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون﴾ فنكسوا رؤوسهم وحاروا فى الجواب، ثم قر رأيهم على أن يلقوه بالنار. ويقال إن الذى أشار عليه بحرقه هو رجل من الأكراد يقال له شعيب، وقيل اسمه هنون، فخسف الله به الأرض وهو يتخلخل فيها إلى يوم القيامة، فلما أعدوا له النار صاحت السموات والأرض والجبال ومن فيهن من جميع الملائكة صيحة واحدة وقالت: يارب أنت أعلم أن إبراهيم ليس فى الأرض من يعبدك غيره، يحترق فيك فأذن لنا فى نصرته، فقال لهم الله تعالى: إن استعان بكم فى شئ أو دعا أحداً منكم فلينصره، وقد أذنت له بذلك، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه، فخلوا بينى وبينه. فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه ملك المياه فقال له: إن أردت أطفأت النار، فإن خزائن المياه والأمطار عندى، وأتاه خازن الريح فقال: إن أردت طيرت النار فى الهواء. فقال لهم إبراهيم: لا حاجة بى إليكما. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى،

ثم جاءه جبريل فقال لإبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فقال له جبريل: فقال: سل ربك حسبنا الله ونعم الوكيل. (نلاحظ هنا أن القاص يريد أن يبرز قوة شخصية إبراهيم وقوة إيمانه بحيث أنه لا يريد أن يستعين بأى من مخلوقات الله حتى لو كانت مسخرة لمساعدته). عند ذاك قال الله تعالى: ﴿يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم﴾. «قال على بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما: لو لم يقل سلاما لمات إبراهيم من بردها ولم يبق يومئذ فى الأرض نار إلا أطفئت». ثم أخذت الملائكة به وأجلسته إلى جانب عين ماء وورد أحمر ونرجس أصفر، كما أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة.

وعلى هذا النحو تستمر القصة فى سرد سيرة إبراهيم عليه السلام، فهى مرة تستعين بالأحداث التاريخية التى يدعمها النص القرآنى، ومرة أخرى تملأ ما تجده من فراغ قصصى بروايات خيالية أو قصص تعليلية طريفة. فإذا قال الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾، علل القاص كلمة عظيم بقوله: «وكان كبشا رعى فى الجنة أربعين خريفا، وهو الذى قربه هابيل ابن آدم عليهما السلام وقتل بسببه»، فلذلك سماه الله «عظيما». وإذا كان هناك يومان فى شعائر الحج، أحدهما يسمى يوم التروية والآخر يوم عرفة، علل هذه التسمية بقوله: «ثم رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه قائلا يقول له: يا إبراهيم إن الله يأمرك بذبح ولدك، وكان ليلة التروية، فما أصبح تروّى فى نفسه أمنَ الله هذا المنام أم من الشيطان، فمن ثم سمى بيوم التروية. فلما أمسى رأى المنام ثانيا، فلما أصبح

عرف أن ذلك من الله، فمن ثم سمى يوم عرفة». وهو إذا قص عن الموقف الذى تهيأ فيه إبراهيم لذبح ابنه، صعد هذا الموقف دراميا حتى يختمه بطلب إسماعيل من أبيه قائلا: «يا أبت كبنى على وجهى فإنك إذا نظرت إلى وجهى رحمتنى وتدركك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى».

وتنتهى قصة إبراهيم عليه السلام بوفاته. وقد سبق أن ذكرنا أن القصة تفيد من الحديث الذى ورد فى السيرة، والذى يقول: «أن الله لم يقبض نبيا حتى يخبره»، فتتفنن فى وصف هذا الموقف فتقول: «لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أرسل ملكا فى صفة شيخ هرم ... فبينما هو يطعم الناس إذا هو بشيخ كبير يمشى فى الخلوة، فبعث إليه بحمار فركبه. فلما أتاه قدم إليه الطعام. فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه فيدخلها مرة فى عينه ومرة فى أذنه، ثم إذا أدخلها فى فمه ودخلت فى جوفه خرجت من دبره، وكان إبراهيم عليه السلام قد سأل ربه ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذى يسأل الموت. فقال إبراهيم للشيخ حين رأى حاله: ما بالك ياشيخ تصنع هذا؟ قال: يا إبراهيم، الكِبر. قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن مائتى سنة. فوجد عمره يزيد عن عمر إبراهيم بسنتين، فقال له إبراهيم: إنما بينى وبينك سنتان، فاذا بلغت عمرك صرت مثلك، اللهم اقبضنى قبل ذلك اليوم. فقام الشيخ فقبض روحه عليه الصلاة والسلام.

ولا تنسى القصة فى خاتمتها أن تلمح إلى أن إبراهيم كان يتبع شريعة الإسلام فتقول: «إن أول من صلى صلاة الصبح آدم صلوات

الله عليه حين أهبط من الجنة إلى الأرض ودخل الليل. ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك، فخاف خوفا شديدا من الظلمة. فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى، الركعة الأولى للنجاة من ظلمة الليل، والثانية شكرا لرجوع ضوء النهار، فكان ذلك سبب كونهما ركعتين وفرضتا علينا، وأول من صلى الظهر إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح الولد، صلى أربعا: الأولى شكرا لذهاب غم الولد؛ والثانية شكرا لنزول الفداء؛ والثالثة شكرا لرضاء الله تعالى حين نودى: قد صدّقْت الرؤيا؛ الرابعة لصبر ولده على معرة الذبح، وكان ذلك منه تطوعا، وقد فرض علينا».

وهكذا نرى كيف جمعت القصة بين العناصر المختلفة المنقولة والمؤلفة في تناسق وتناسب تام بحيث لم يطغ عنصر على الآخر، وبحيث أصبحت القصة متكاملة، ليس فيها فجوة إلا وملئت بحدث..

(٧)

ثانيا ـ القصص المدون عن معجزات الرسول عليه السلام:

ومن المعروف أن الشعوب جميعا تميل إلى قص حكايات المعجزات كما تميل إلى الاستماع إليها، ولا غرابة أن تنتزع من السيرة تلك الأخبار التي تشير إلى المعجزات، أو تلك التي يمكن أن تستغل هذا الموضوع فينميها القاص الشعبي ويفرد لها قصصا مستقلة. ولا يخرج الدافع وراء مثل هذا القصص عن ثلاثة أمور: إما أن يكون الدافع هو رواية معجزات الرسول عليه السلام في حد ذاتها

بقصد تأكيدها، أو أن يكون وراء رواية هذه المعجزات دافع اجتماعى أخلاقى، وربما روجت هذه الحكايات بعد تحويرها بتأثير حزب الشيعة الموالى لعلى بن أبى طالب. فقصة عامر اليهودى عابد الأصنام[1] تروى بغرض تأكيد معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وقصة اليتيم المظلوم تهدف إلى التذكير بالقيم الاجتماعية الإيجابية التى دعا إليها الإسلام، أما قصة الغزالة والجمل، التى ماتزال تروى حتى اليوم، فإنها تشير إلى الغرضين معا، وأما القصص الذى روجته الشيعة عن على بن أبى طالب فهو كثير، وسنكتفى بالإشارة إلى نمط منه فى حينه.

وتحكى قصة عامر اليهودى عابد الأصنام أنه كان له ابنة أصيبت بالفالج والجذام، وكان أبوها يرسلها لدى الأصنام لكى تشفيها من دائها. وذات يوم بينما كان الأب عامر عاكفا على عبادة صنمه، شاهد نورا ملأ الآفاق، ثم كشف الله عن بصيرته فرأى الملائكة عند الكعبة وقد اصطفت وراء الجبال الساجدة والأرض الهامدة، وسمع منادى ينادى وقد ولد النبى الهادى، ثم نظر إلى الصنم فإذا هو منكوس، وإذا به يسمع صوتا مصدره حجر يناديه: قد ولد النبى الهادى، فلفت نظر زوجته إلى الصوت ومصدره، فقالت له: سله ماسم هذا المولود الذى شرف به الوجود؟ فقال: اسمه محمد المصطفى، فقال لزوجته: اخرجى بنا نسير فى طلبه، لعلنا نهتدى إلى الحق بسببه، وفى هذه اللحظة رأى ابنته تقف أمامه سليمة معافاة ليس بها أى داء. وكان قد تركها طريحة الفراش فى أسفل البيت، فسألها أبوها وهو فى ذهول تام عما إذا كانت قد شفيت، فحكت له أنها رأت نورا قد ملأ مابين السماء والأرض وعم الوجود، ثم رأت

(١) قصة عامر اليهودى ـ المكتبة التجارية ـ وتقع فى ثلاث صفحات.

شخصا أمامها يسطع النور من وجهه، فلما سألت عمن هو، قيل لها أنه سيد ولد عدنان، فلما سألت عن اسمه، قيل لها محمد وأحمد. ثم سألت عن دينه فقيل لها حنيفا دين الإسلام. وهو قرشى ويعبد الواحد القهار رب السماوات والأرض. فلما سألت عن مصدر الصوت أجابها الصوت: أنا الملائكة المبشرون. عندئذ شكت لها داءها فقالت لها الملائكة: توسلى إلى الله بجاهه، فقد قال الرب القريب الدانى، إنى قد أودعت الإنسان سرى وبرهانى، فلا أخيب من دعانى، فبسطت يدى ودعوت الله بجاهه كما وفقنى وهدانى، ثم سحبت بيدى على وجهى وجسدى فاستقيظت وأنا صحيحة كما ترانى».

عند ذاك أخذ الأب ابنته بين أحضانه وقرر أن يرحلوا جميعا لتوهم إلى مكة لرؤية المولود النبى، وهناك فى مكة طرقوا بيت آمنة بنت وهب وسألوها عن هذا المولود الذى نور الله به الوجود، فقالت «إنى أخاف عليه من اليهود، فقالوا لها، نحن فارقنا أوطاننا فى محبته، وتركنا ديارنا لنرى جمال هذا الحبيب، الذى من قصده لايخيب». فسمحت لهم بالدخول، وكشفت الغطاء عن وجه الطفل لتطلعهم عليه «فبتسم، وخرج من فمه عامود نور، فصاحوا من فرحهم وصفقوا، ثم قبلوا قدميه وسلموا العهد والأمانة، وقالوا: أخفيه عن أعين الناظرين» ثم خرجوا.

ولم يكد عامر يجاوز عتبة الباب حتى شعر برغبة شديدة فى رؤية الطفل مرة أخرى، فعاد إلى أم الوليد التى لم تمنعه من رؤيته مرة أخرى «فانكب على قدميه وأخذ يقبلها، وشهق شهقة وعجل الله بروحه إلى الجنة».

فهذه القصة ـ مع بساطتها ـ استغلت عناصر كثيرة من السيرة النبوية، هى التى تحكى عن معجزات الرسول عليه السلام: فقد استغلت ماروى فى السيرة من الإيمان المفاجئ لبعض المكابرين والمعاندين للدعوة، سواء كانوا من العرب أو اليهود، كما استغلت القصة النبوءة التى رآها كسرى وغيره، ورأوا فيها إشراقة من النور تعم الكون عند ولادة الرسول عليه السلام. ثم ذلك الخبر الذى يحكى كيف أن الأحجار كانت تحيى النبى عليه السلام قبل أن يهبط عليه الوحى وتقول له: «السلام عليه يارسول الله».

هذه العناصر جميعا استغلتها القصة لتحكى عن الميلاد المعجز للرسول عليه السلام. وقد أسندت القصة أحداثها ليهودى جعلته عابدا للأصنام، ومعنى هذا أنها جعلته كافرا بدينه، ومع ذلك فقد جعلته مصدقا برسالة الرسول عليه السلام وهو مازال طفلا فى المهد.

أما قصة اليتيم المظلوم[1] فربما ألفت بتأثير الآية القرآنية: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾، وهى تحكى أن النبى عليه السلام بينما كان عائدا من غزوة من غزواته إذا به يرى طفلا صغيرا مسكينا نائما على الأرض ومن حوله الأطفال يلعبون، فأيقظه الرسول عليه السلام وسأله عن السبب فى عدم مشاركته الأطفال فى اللعب، فرد عليه الطفل، الذى لم يكن يعرفه وقال: «ياعمى لم تسألنى هذا السؤال؟ وما الفائدة التى تعود عليك منه؟ إنى قرأت فى التوراة من سأل عما لايعنيه يقع فيما لايرضيه» ثم أنشد شعرا يشكى فيه حال الدنيا وظلم أهلها. فأعجب النبى بفصاحة الصبى، وكان إذا أبدى إعجابه بشعر

(١) قصة اليتيم المظلوم ـ المكتبة التجارية، وتقع فى سبع صفحات.

قال له شعرا آخر أحسن منه. وبعد ذلك عرفه الرسول بنفسه، فراح الصبى يقبل قدمى الرسول عليه السلام. عند ذاك سأله النبى ما إذا كان يقبل أن يكون الرسول عليه السلام جده، ويكون على بن أبى طالب أباه، ويكون الحسن والحسين أخويه، فتهلل الصبى، وقبل مطلب الرسول عليه السلام على الفور. وهناك فى المدينة قدم الرسول عليه السلام الصبى إلى فاطمة ابنته وزوجة على بن أبى طالب، وطلب منها أن ترعاه رعايتها للحسن والحسين، وفرحت فاطمة بالصبى وضمته إلى ابنيها. وذات يوم غضبت فاطمة لسلوك لم يعجبها منه، فضربته، فبكى الصبى، ورآه الرسول عليه السلام وهو يبكى، فقال لفاطمة: «يا فاطمة ما أحضرته إلا أن تربيه وتحسنى إليه، وإن الله سبحانه وتعالى غضب على ضرب اليتيم، وإنه أنزل آية فى ضرب اليتيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فأما اليتيم فلا تقهر*وأما السائل فلا تنهر*وأما بنعمة ربك فحدث﴾. عند ذاك اعتذرت له فاطمة بشدة كما اعتذرت للصبى.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتهيأ للخروج إلى غزوة من غزواته، فطلب إلى الصبى أن يخرج معه محاربا، فأخذه الرسول عليه السلام معه. ودخل الصبى المعركة فأصيب بضربة قاتلة أودت بحياته، فغسله الرسول على السلام وكفنه وصلى عليه، ووراءه سبعون ألفا من الملائكة، وأودعه قبره وانصرف.

وأما قصة الجمل والغزالة[1] فهى قصة منظومة،وماتزال تروى شعرا حتى اليوم. وتحكى القصة عن معجزة نطق فيها الجمل والغزالة

(١) قصة الجمل والغزالة ـ المكتبة التجارية، وهى تقع شعرا فى سبع صفحات.

لكى يشكوا للرسول عليه السلام ظلم الإنسان ويطلبا منه الانتصار لهما.

وإذا كانت هذه القصة فى عمومها تعد من قصص الحيوان الرمزى الذى يقوم بوظيفة الكشف عن طبائع الإنسان الخسيسة، وعن غبائه وقلة حيلته فى بعض الأحيان، فإنها هنا فى هذا المجال لاتؤدى هذا الغرض وحده، بل تؤدى غرضا آخر أهم منه، هو إثبات معجزة الرسول عليه السلام، فضلا عن الإشادة بأخلاقة السامية التى حرص على أن ينشرها بين المسلمين. وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه السلام فتقول زجلا:

فى أول القول مديحك يانبى استفتاح

يامن تسلم عليك الشمس كل صباح

ما أحلى مديحك وما أخفه ع المداح

وأنا إن مدحت النبى لم كان علىّ جناح

وتانى القول مديحك يانبى مطلوب

وكم من ضيقة تفرجها على المغلوب

ثم يبدأ القاص فى سرد أحداث الحكاية، مشيرا إلى خاتمتها التى تمثل عنصر التصعيد فى حوادثها، فيقول بعد هذا المدح مباشرة:

جت الغزالة لبنها على الثرى مسكوب

ضمنتها ياحبيبى لما أوفت المكتوب

فهذا البيت يشير إلى خاتمة هذه الحادثة كما سنراها، وهى أن النبى عليه السلام قبل أن يكون رهنا لدى صاحب الغزالة فى مقابل أن يفك صاحبها أسرها حتى تذهب لإرضاع أطفالها ثم تعود، ولكن القاص لايلبث أن يترك موضوع الغزالة بعد هذا البيت ليحكى عن قصة الجمل، وكأنه قد التقى بهذه الإشارة عن الغزالة ليوحى للمستمع أنه سيحكى حكاية تربط بين قصة الغزالة وقصة الجمل فى نسيج واحد، ومن ثم فهو يعود فيربط الأبيات الأولى التى قالها فى مدح الرسول عليه السلام بما سيأتى بعد ذلك، فيقول:

من بعد مدح النبى اسمع كلام معدود
منظوم ومنشور جواهر كلها فى عقود
نطق الجمل والغزالة وأسلم أبو مسعود
على إيدين ابـن رامـة صفوة المعبـود

وبهذا يكون القاص قد أكد عملية الربط القصصى بين حادثتين هما حادثة الغزالة وحادثة الجمل، فيقول:

كـان النبى والصحابـة جالسين صفين
متجمعين بابـن رامـة سيـد الكونـين
إلا أتـى لـه جمل يبكى بدمع العين
نطـق وقـال السلام عليك منى يا زين
قال الجمـل للنبـى ما جئت إلا لك
وماجـرى لـى أريـد أن أنبئك وأسالك

يامصطفى الحكاية تنكتب على أوراق

بينى وبين صاحبى ياصفوة الخلاق

قد كنت أيام الصبا يازكى الأخلاق

ولى عزم تحت الحمول أمشى ولاأنساق

وأنا كنت مكروم وأنا له شديد الحيل

ولى عزم تحت الحمول أمشى شبيه الخيل

لما أتانى العيا يا أحمد حملت الويل

بركت وعييت بعد الغندرة والشيل

وكل يوم ييجى صاحبى يشوف حالى

يزيد عليقى ويتوصى بأحمالى

جا صاحبى يوم شافنى كده مسقوم

عيان ولا لى جلد أهم وأقوم

قال ده جمل حاله بحال الشوم

بكره اذبحه واتى بغيره يقوم

أنا سمعت الكلام من صاحبى ياهادى

بكيت على سقم حالى بعد اجتهادى

أمر بذبحى فزاد سقمى وانكادى

وقل عنى عليقى وانقطع زادى

بقيت واقف وأنا فى عذر واستعذار

خايف من الذبح والسكين والجزار

فقلت مالى سوى الهادى يجير الجار

أقصد حماه من قد الحما ينجار

فأنا أتيت قاصد الحمى والفرض

يجيرنى يامجير الناس يوم العرض

قال النبى للجمل ارتاح وحق المفرد

لأخلصك بإذن من السما والأرض

لأخلصك ياجمل من صاحبك وأساه

وأكفيك شره وشر أبيه اذيته وبلاه

سار الجمل والصحابة والنبى قدّام

من أجل شكوى الجمل والأمر لله

سار النبى والصحابة والنبى قدام

يرى الصحابة سحابة كاسية النبى بغمام

فعند بيت صاحبه أشار النبى لبلال

أطرق الباب وصحى صاحبه فى الحال

سمعت الجارية نزلت سريع للباب

للجارية شرح ومعنى يسمع لجواب

كان سيدها ضربها كف فوق الخد

قلع لها عين من جهله وهو معتد

نزلت لقت محمد لم مثيله حد

فتح عينها بعد العمى وارتد

رجعت تزغرت وهى فى الحظ فرحانة

فقال لها سيدها منين الفرح جاكى

قالت رأيت نبى بعيون نعسانه

فتح عيونى بقت بالنور مليانه

فقال لها راجل ساحر وسحره فاق

يبقى سَحَرك وجانا فى دجل ونفاق

يبقى سحرك وجانا يطلب الأسرار

أنا انظر مراده وأشوف إيه اللى جابه الدار

نزل يلاقى محمد باهى بالأنوار

وقف وقال: إيه مرادك منى ياسحار

قال النبى: بالعجل قبحت واتعديت

وصرت من أهل بيت الشرك واتعديت

لولا الجمل جا يشكى من عيا حاله

من كتر ما ضربته سقم وضعف حاله

قللت عنه العليق ليش هوّ كان ماله

سمعك تقول أدبحه للبيت أتى وشكا لى

جبته وجيت على طول سيبه كراما لى

تبقى مروءة عظيمة واكراما لى

قال اليهودى لطه يامحمد سير

هذا الكلام غير صحيح ليس معى تأثير

كيف ما نطق يهود الصعب والتعسير

وهو جمل أخرس عادم التفسير

وهو جمل أخرس نطقه معدوم

ماله فصاحة وعن رد السؤال معدوم

أنا إن سمعته بيتكلم كلام مفهوم

كنت اعتقه وأصلى كمان وأصوم

قال النبى سير بنا فى الخلا واسمع

نُطق الجمل والغزالة يطرب المسمع

وهكذا يوجد القاص مجالا فى السياق لكى يؤكد مرة أخرى العلاقة بين قصتى الجمل والغزالة، فهو يزحزح مطلب اليهودى الذى يتحدى فيه النبى فى أن يجعل الجمل ينطق أمامه، فيجعل له البرهان فى معجزة أخرى هى معجزة نطق الغزالة.

ومن هنا يبدأ فى سرد قصة الغزالة:

سـار النبـى والصحابة كلهم أجمع

والأربعـة الأفاضـل حربهـم يقمـع

والأربعـة اللـى اتسموا كل قوم شديد

ساروا بجنب النبى فى النصر مع التأييد

عنـد بيـت مـزرى فـى الخلا بعـيد

مربوطـة بجنبـه غزالـه مقيـدة تقييـد

مربوطة بجنبه غزالة فى أسرها مأسورة

مقيـدة باكيـة العـين محصـورة

طلعت تلاقى محمد عيونه بالنور مغمورة

قالت له أنا بيك وحق الله منصورة

مصطفـى أنصفنـى ياحجـة المنضام

يـاخـاص خـواص الأنبـياء وختـام

بقـى لـى ثـلاثة أيام مأسورة بالتمام

عـن أولادى وهـم فـى صفـة أيتـام

قـال لهـا النبـى عنـك يـزول الشـر

هـو مين صيـادك اللـى جهل واغـتر

قالت أدى ثلاث أيام ماعلى مَرّ

داير بيصطاد الغزلان فى الفـلا والبر

حين تمت الغزالة قولها الباب دق

فى فتحة بابه رأى حرمه تحب الحق

وهى تقول يامحمد بدك الصدق

اسلمت، قال النبى صدقت وحق الحق

فرّيتى من النار ومن شدة لهالهيبها

هى الغزالة لك أم حد جايبها؟

قالت له بعلى ومن أجلك أسيبها

ولو كان بعلى يموتنى من سبايبها

خدها وروح يا خاص خواص النور

لاحسن ده بعلى بان منه أسا وشرور

اليهودى برطلوا بألفين دهب وكسور

إن راح وجابك لهم مقتول مأسور

ماتم قول المرأة لما أقبل الصياد

راكب على مهر غالى للّقا معتاد

حتى رأى الهادى محمد صفوة الأجداد

نزل وبعد النزول سلم سلام أجواد

بعد السلام قال لهم ما تطلبوا صار

مين اللى جابكم نحو الحمى والدار

قال له النبى سيب الظبيه بالآكام

اللى الحزن والبين عليها صار

اللى ابتلت بالحزن والدمع منها عام

ومن بكى أولادها كل درجة بعام

وإن تكرمت فيها تقلل الإكرام

وإن حقا تريد تعطين بلا أوهام

قال اليهودى لطه الزين أنت مين

ياللى أتيت للغزالة سند ومعين

قال أنا أحمد وسمانى الإله ياسين

شفيع فى أمتى يوم الحساب ضمنين

قال اليهودى زمان عينى تراعيك

دلوقتى أوريك الحرب منى ليك

وقعت فى أيد من لا نصير ليك

لأحاربك وأحارب من يحاميك

قال النبى فض هذا القبح والعياب

ولا تكن مدعى تندم على اللى فات

سيب لنا الغزالة واترك لنا اللوعات

يرضع ولادها اللى قاسو من اللوعات

قال اليهودى لطه الزين ما جاشى

أنا الغزالة حدايا ما أسيبها شى

قال النبى سيبها واترك الكلام الواشى

يرضع أولادها وترجع على الماشى

قال النبى للغزالة ان ضمنتك ترجعى لى

بالتحقيق ماتهربيش تفضحينى مع الزنديق

ردت عليه بلسان فصيح صديق

ماغير ارضع وارجع بالعجل بحقيق

لما سمع نطقها دنا منها

وحلها بعد ما كان القيد ساجنها

وبعد ما حلها بحقيق بعيد عنها

وقالوا قليل إن رجع لضامنها

قال النبى إن أنت تسلم وحق الحق

قال أصوم وأصلى وأشهد بأنك حق

من بعد هذا استمع للكلام ثابت

وماجرى للغزالة بعدما سابت

راحت لأولادها بعد ما سابت

تلقى بكاهم روى عشب الجبال ثابت

قالوا يا أمنا مين كان لاهيكى

ثلاث أيام واحنا لم نلاقيكى

نشوفك بعيدة عنا نوافيكى

نبكى بحرقة على اللى صابنا فيكى

قالت لهم ارضعوا ما حد يتبعنى

إلا الزمان كادنى والغلب غلبنى

وقعت فى إيد صياد شقى وعنيد

أخذنى معاه فى حبل الذل والتنكيد

فات التهامى لقانى فى بكى وعديد

وقف ضمنى وخلصنى من التقييد

وقف ضمنى وفعل الخير سعى فيه

يابخت من كان للمختار وسعى فيه

يا لله ارضعوا لأجل ما ارجع ورجعوا

ضمانته قبل الصياد ما يقصر فيه

قالوا يا أمنا القول ده ما نرضاه

لبنك علينا حرام وحياة حبيب الله

كيف ترهنى المصطفى عند اليهود واعده

ياخجلتك يوم القيامة بين أيادى الله

كيف ترهنى المصطفى أصيل الجد

عند يهودى عنيد ما يختشيش من حد

كيف ترهنى يا أمنا اللى من النار يضْمنّا

هيـا ارجعـى واقربه السلام منـا

رجعت تعـدد وزاد بكـاها حصـر

قال النبى جتينى ليه بالعجل وبان النصر

قـال أبـو يرضعوا يافريـد النصـر

لمـا سمع نطقها الصياد قال الصر

مـن الغزالة وأمـرك للإله سلـم

قال اليهودى أنا لا أسلم ولاأسلم

إلا أن سمعت الجمل ينطق ويتكلم

قـال النبـى خصمك أهـو جالـك

احكى له قصتك وانبيه على حالك

قـال الجمـل للنبـى ماجيت إلا لـك

أنبيك علـى ماجرى لى يازين وأسألك

فلـم لقيـت فـى العالـم مجـير سـواك

أنا مستجير بـك يـا أحمد ومـن ملاك

قال اليهـودى حقيـق أسلمـت ياعدنان

وأشهـد أن الكـريم واحـد ديـان

وأشهـد بأنـك محمـد للمجـالس زان

شفـيع لنـا يـوم ينصـب الميـزان

وإن كان سليمان عطى من ربنا انعام

أنت يا مصطفى للأنبياء ختام

وبهذا تنتهى قصة الجمل والغزالة، وهى قصة محكمة النسج، حيث يراعى فيها التسلسل الدقيق للأحداث من أولها إلى آخرها. وفضلا عن هذا فقد تجاوزت القصة بساطة القص فكسرت التتابع الأفقى بعمق رأسى. وذلك عندما علقت المستمع عند قرب نهاية قصة الجمل، فبدأت قصة أخرى هى قصة الغزالة، يهدف تأكيد شر الشخصية الشريرة وتأكيد الظلم الذى يقع على الضعيف، ثم قلة حيلة الضعيف لو لم تسانده قوة عادلة تضع الأمور فى نصابها، فقد كان من الممكن أن تتابع القصة الأولى قصة الجمل حتى نهايتها بحيث يتحدث الجمل مرة أخرى أمام اليهودى عندما تحدى الرسول عليه السلام قائلا:

أنا إن سمعته يتكلم كلام مفهوم

كنت أعتقه وأصلى كمان وأصوم

ولكن القاص أرجأ الإجابة عن هذا التحدى لكى يجعلها مكثفة أو مضاعفة فتتضاعف المعجزة فى الوقت نفسه، كما يتعمق مفهوم ظلم الإنسان وجبروته، الذى يفسر عدم قبوله الدعوة المحمدية بالمنطق والعقل، فإذا أسقط فى يده لم يجد مفرا من قبولها. والجمل والغزالة حيوانان صحراويان، فالأول رمز للجلد والصبر وقوة التحمل، والثانى رمز للحرية والانطلاق. ولهذا فقد جعل القاص الحيوان الأول يشكو ظلم الإنسان عندما تنكر لخدمته الطويلة له فى صبر وجلد وتحمل، كما جعل الثانى يشكو أسر الإنسان له وحرمانه إياه من حرية الحياة مع أبنائه، وفى كلتا الحالتين لايريد الإنسان إلا أن يشبع بطنه من لحم الحيوانين.

وبهذا تكون القصة المؤلفة قد حققت غرضها فى تأكيد المعجزات النبوية. وبث القيم الأخلاقية، وكشف طبائع الإنسان الخسيسة.

وإذا كانت مهمة الدعوة المحمدية هى إعادة النظام إلى الحياة وإلغاء فوضويتها من خلال تطبيق أسس الإسلام العادلة، فقد انتهت القصة بتحرير المظلوم، وفك قيد الأسير، وخضوع الظالم للنظام الدينى العادل.

(٨)

وإذا كانت القصص السابقة تركز حول معجزات الرسول عليه السلام، إما لغرض أخلاقى أو من أجل تأكيد المعجزات فى حد ذاتها، فهناك اتجاه آخر فى القصص المتأثر بالسيرة النبوية، ينحو إلى

ينتزع حدثا من السيرة ويحيك حوله قصة، لا ليكون التأكيد فيها على المعجزة، وإن وجدت، بل لتأكيد مكانة على بن أبى طالب وزوجته بنت الرسول عليه السلام، من نفس الرسول ومن الإسلام. ولدينا نموذجان مدونان لمثل هذا القصص، هما قصة معاذ بن جبل. وقصة على فى حرب تبوك.

أما قصة معاذ بن جبل، فهى تدور حول الخبر الذى ورد فى سيرة ابن هشام على النحو التالى: «قال ابن اسحق: حدثنى عبد الله ابن أبى بكر أنه حدث أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذ بن جبل مع قوم جاءوا إليه من اليمن يطلبون الدخول فى دينه، ليفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن، وقال له: «يسر ولاتعسر، وبشر ولاتنفر، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك: مامفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».[1]

هذا الخبر اتخذت منه القصة نواة لأحداثها وصاغته على النحو التالى: «حكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فى خيمة، إذ دخل عليه عشر من أكابر اليمن، فقالوا: السلام عليك يا محمد: فقال السلام على من اتبع الهدى، من أنتم؟ فقالوا: يا رسول الله نحو من أكابر اليمن، آمنا بك قبل أن نراك وقد جئناك. فأخذهم إلى بيته، وكانت ليلة عائشة رضى الله عنها، فأمر لهم بزاد فأكلوا، وبات النبى صلى الله عليه وسلم راكعا ساجدا وهو متفكر فى أمرهم، إذ هبط عليه جبريل وقال: يامحمد ربك يقرئك السلام ويقول لك أرسل معاذ بن جبل إلى اليمانيين، وأذن بلال أذان

(١) السيرة جـ ٣ ص ١٤٨.

الصباح، وصلى النبى بأصحابه، وأقبل يدعو المسلمين، فلما فرغ من دعائه قال: يا معشر الناس، إن أخى جبريل أتانى وأمرنى أن أرسل إلى اليمانيين معاذ بن جبل. قالوا: نحن طائعون، فعند ذلك نادى النبى لمعاذ، فقال لبيك يارسول الله. فقال: امض إلى منزلك وجهز نفسك للسفر، فإنى أريد أن أوجهك مع أهل اليمن لتكون أنت المتولى عليهم، وتعلمهم قواعد الدين، فقال معاذ: السمع والطاعة لك يا رسول الله «ثم تمضى القصة فتخلق مشاهد حوارية بين معاذ بن جبل وأمه التى تلومه على ترك الرسول عليه السلام، ثم بينه وبين أهل اليمن عندما يصل إليهم، مستخدمة الشعر الغنائى بين فصول هذه المشاهد.

و «أقام معاذ رضى الله عنه فى ولايته باليمن سبع سنين، فلما كان بعض الليالى، جلس فى المحراب بعد أن فرغ من صلاته وتعليمه للناس وجعل يسبح الله تعالى، فأخذته سنة من النوم، فأتاه هاتف وقال له: يامعاذ، أنت غافل والله ليس بغافل، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فارق الدنيا، فانتبه معاذ من نومه مرعوبا، ولعن إبليس، وجدد وضوءا آخر، ورجع إلى صلاته، واتخذ من الليل جانبا، فغلب عليه النوم فنام، فأتاه الهاتف ثانيا، وقال يامعاذ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم فارق الدنيا، ماهذا الرقاد؟ انتبه! قال ابن عباس: فانتبه معاذ من نومه مكروبا وهو يقول: لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ثم جلس فى المحراب ينظر وبدأ الصلاة إذ سمع هاتفا يسمع كلامه ويرى شخصه وهو يقول: يامعاذ مضت

ثلاثة أيام من حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يامعاذ، ما أنا بشيطان ولكن ملك من الملائكة».

وعندئذ تأكد معاذ من حقيقة الرؤيا، وقام وودع الناس وهو يبكى وينتحب، وقفل راجعا إلى المدينة. وكان أول من قابله فيها أمه التى كانت تبكى لفراق الرسول عليه السلام، وفراق ابنها الذى لم يدرك وفاته، وقد كان السؤال الذى يلح على معاذ بن جبل هو: كيف مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا فقد دخل على أبى بكر ليحكى له كيف استقبل الرسول عليه السلام الموت، وكيف استقبل المسلمون موته، ولكن أبا بكر الذى كان غارقا فى دموعه لم يتمكن من أن يحكى له تفاصيل الحادث، وأحاله إلى عمر بن الخطاب، ثم أحاله عمر إلى عثمان الذى أحاله بدوره إلى على بن أبى طالب.

وأخذ على بن أبى طالب يحكى له تفاصيل الحادث، ابتداء من اللحظة التى أخبر فيها الرسول عليه السلام عن طريق جبريل بأن ملك الموت قد أتى ليقبض روحه. «ودخل (جبريل) على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال: ما يبكيك يا أخى جبريل؟ فقال يا محمد، وكيف لا أبكى وملك الموت واقف بالباب، وهاهو يستأذنك فى الدخول. فعند ذلك بكى النبى، فقال له ملك الموت: لا تبك يا محمد، والذى بعثك بالحق بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا، إنى لأرفق بك .. فعند ذلك قال النبى: «يا أخى عزرائيل لا تستعجل على حتى أودع أصحابى وأحبابى وانظر إلى قرة عينى أم المسلمين

فاطمة الزهراء والحسن والحسين» . فسمح عزرائيل له بذلك، فدخل النبى عليه السلام على فاطمة وقال لها: «يافاطمة، إذا كان يوم القيامة يحشر الناس حفاة عراة، وتكونى أنت فى هودج من نور، فلا تزالى عليها إلى أن تقرعى باب الجنة، ويكون جبريل آخذ بزمام الناقة وهو ينادى: ياجميع الخلائق، يا أهل الموقف، غضوا أبصاركم ونكسوا رؤوسكم، فإن فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وسلام جائزة إلى الجنة» . ثم أخبرها بعد ذلك أن عزرائيل جاءه ليقبض روحه. وتستطرد القصة فتحكى عن اجتماع النبى عليه السلام بالمسلمين وصلاته بهم الصلاة الأخيرة. ثم تحكى كيف أن عكاشة بن بلال قام بعد الصلاة وذكر الرسول عليه السلام بأن ضربه مرة بقضيب فى غزوة بدر. ولم يعرف حتى هذه اللحظة سبب ضربه إياه، فأصر النبى أن يقوم ويقتص لنفسه منه قبل أن يقبض الله روحه. ولكن عكاشة أصر على ضربه وهو عارى الظهر، عندئذ خلع النبى ملابسه حتى يضربه على ظهره كما ضربه من قبل، وعندئذ قام عكاشة وقبل النبى وهو يبكى ويقول: «ما عاش من يقتص منك يارسول الله، ولكنى سمعتك تقول ما من أنف يشم رائحة جسمى إلا حرمه الله على النار» .

وتنتهى القصة بمشهد درامى يحضره الصحابة والمقربون من الرسول عليه السلام وهم يشهدون موته.

(٩)

على أنه لا ينبغى علينا أن نترك الحديث عن القصص المدون المتأثر بالسيرة النبوية قبل أن نشير إلى أكثر موضوعات السيرة إثارة

لخيال الرواة، ونعنى بذلك إسراء الرسول عليه السلام ومعراجه. وقد تنوعت النصوص حول هذا الموضوع وتعددت، وانتقلت من الشرق إلى الغرب، إلى درجة أنها أصبحت جديرة بدراسة مستقلة.

وقد كان من الطبيعى أن يثير موضوع الإسراء والمعرج الخيال الشعبى فى أن يتصور دقائق رحلة الرسول عليه السلام من مكة إلى القدس، ثم من القدس صاعدا إلى السماوات العلى، وهى التفاصيل التى لم ترد فى القرآن الكريم. على أن هذا لا يعنى أن قصص الإسراء والمعراج قد انتشر على هذا النحو فى حياة الرسول عليه السلام، أو فى السنوات التى تلت موته، ولكن رواجه كان فى زمن متأخر. وطوال هذه العصور انشغل الإنسان بموضوعات تخص العالم الآخر وذكرها له الدين، مثل الجنة والنار، وسدرة المنتهى، والعرش. والسماوات السبع. ولهذا ليس غريبا أن يجد الخيال الجمعى فى قصة الإسراء والمعراج مجالا فسيحا يصور من خلاله كل هذه الجوانب فى العالم السماوى.

ولا يمكننا الآن أن نقدم رواية كاملة لقصة الاسراء والمعراج، فإن ذلك يستغرق حيزا كبيرا، ولكننا نكتفى بأن نأتى ببعض النصوص التى تبين كيف تصور الخيال الشعبى العالم الآخر بأبعاده المختلفة. وهذه المقتطفات تأتى بها من مخطوط من مخطوطات برلين،[1] ومن الطبيعى أنها وردت فى غيره من المدونات. ويذكر فى أول هذا المخطوط أنه من تأليف الكسائى، ولا ندرى ما إذا كان هو الكسائى النحوى المعروف أم غيره.

(١) مخطوط برلين Mo OPRH.H 436

وتبدأ القصة بأن فاطمة ابنة الرسول عليه السلام سمعت طرقا على الباب، فلما فتحت «رأت شيخا مهابا وعليه من الحلى والحلل. وله جناحان وقد سد بهما المشرق والمغرب. وعلى رأسه تاج مرصع بالدرر والجواهر، ومكتوب على جبينه لا إله إلا الله محمد رسول الله. فرجعت فاطمة الزهراء إلى أبيها وقالت: يا أبتا، إن فى الباب شخصا قد أهالنى وأفزعنى ما رأيت مثله أبدا، وقال أريد محمدا. قال: فخرج إليه سيد الخلق وحبيب الحق، فلما رآه جبرائيل قال: السلام عليك يامحمد. قال النبى صلى الله عليه وسلم وعليك السلام يا أخى جبرائيل. أمر حدث أو وحى نزل أو وعد حضر؟ قال جبرائيل: «يا محمد قم والبس ثيابك وسكن روعك، فإنك تريد أن تناجى فى هذه الليلة من لاتأخذه سنة ولانوم» ثم تصف القصة البراق على نحو ما وصفته (سيرة ابن هشام)، مع بعض الإضافات، فعندما تساءلت البراق قائلة «قد ركبنى آدم صفوة الله وإبراهيم خليل الله، فمن هذا الذى هو أكرم منهما؟ أجابها جبريل قائلا: هذا محمد حبيب الله ورسول رب العالمين، وأفضل من فى السماوات والأرضين، وكل الخلايق يرجون شفاعته يوم القيامة. الجنة عن يمينه والنار عن شماله، فمن صدقه دخل الجنة، ومن كذبه دخل النار. فقالت البراق: قل لصاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، والحوض الكوثر، والشفاعة الكبرى، أن يدخلنى الجنة بشفاعته حتى أركبه ظهرى، ويكون يوم القيامة فخرى وذخرى. فقال النبى: يا براق، أنت فى شفاعتى ومعى فى الجنة».

ثم ركبها الرسول صلى الله عليه وسلم وطارت به، وتحكى القصة على لسانه عليه السلام بعد ذلك فتقول: «فبينما أنا ساير وإذا أنا بمنادى ينادى قف يامحمد قليلا حتى أكلمك كلمتين، فإنى أنصح البرية لك ولأمتك. فسرت ولم ألتفت، وكان ذلك توفيقا من الله تعالى» وتكرر هذا المشهد مرة أخرى، ثم إذا بامرأة نافشة شعرها، فطلبت منه أن يقف ولم يفعل، فسأل عليه السلام جبريل قائلا: «ألاتسمع وألا ترى ما أرى؟ قال: بلى يا محمد، سر فسوف يأتيك تأويل ذلك. ثم سارت البراق حتى علت جبال الطور وأرض فلسطين، فقال لى جبرائيل: يامحمد انزل وصل هنا ركعتين. فقلت ما هو ذا الموضع؟ قال: هذا الموضع الذى كلم الله به موسى بن عمران، ثم سرت قليلا، فقال جبرائيل: انزل وصل هنا ركعتين فقلت يا أخى جبريل: لم أمرتنى بالصلاة ها هنا؟ فقال: ها هنا ولد أخوك عيسى ابن مريم ثم ركبت وسارت البراق، فقال ياجبرائيل: من الهاتف الذى صاح عن يمينى؟ قال: يامحمد، ذلك داعى اليهود، فلو أجبته لتهودت بعض أمتك. وأما الهاتف الآخر الذى صاح عن شمالك فذلك داعى النصارى، فلو أجبته لتنصرت بعض أمتك، وأما المرأة التى رأيتها فهى الدنيا، فلو أجبتها لكانت أمتك اختارك الدنيا على الأخرى».

ثم تصف القصة المعراج فتقول على لسان الرسول عليه السلام كذلك «فنظرت إلى المعراج فإذا أصله صخرة بيت المقدس، ورأسه ملتصق بالسماء الدنيا من حسنه وجماله وإذا مراقية مختلقة الألوان مرقاة من ياقوت ومرقاة من لؤلؤ ومرقاة من الزبرجد ومرقاة من الذهب

الأحمر ومرقاة من النسك الأذفر، فأخذ جبريل بيدى وجعلنى على مرقاة من مراقى المعراج، وقبل ما بين عينى، وضمنى إلى صدره، وقال لى أكرم الخلق على الله، سر معى صلوت الله عليك وسلامه، ثم كنفنى بجناحه، وعرج بى حتى صرنا فى الهوا، فخار بصرى من مقامات المتعبدين ومواقف المجتهدين».

ثم تستطرد القصة فتصف عوالم السماء. وتبدأ بالسماء الأولى التى يصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ثم ارتقينا إلى السماء الدنيا فاستفتح لى بابها، فقالوا: من معك ياجبريل؟ قال: معى محمد حبيب الله، فقالوا: مرحبا بك وبمن معك. ثم فتح الباب فنظرت إلى خازن السماء الدنيا وإذا هو عجيب الخلقة، يقال له إسماعيل، وهو جالس على كرسى من نور وحوله سبعون ألف ملك مثله، وبيد كل واحد حربة لامعة، وهم يسبحون الله تعالى، وإذا عصى واحد من أهل الأرض ينادون: عصى فلان بن فلان، فيغضب الله والملائكة لغضبه، وإذا استغفر الله وتاب سمعت الملائكة استغفاره وتوبته فينادون أن الله قد رضى على فلان بن فلان. وإذا أنا بملائكة بأيديهم الحراب، والملائكة يسلمون علىّ ويدعون لأمتى ثم تقدمت أمامى وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار لا الثلج يطفى النار ولا النار تطفى الثلج، وإذا له ألف ألف رأس، فى كل رأس ألف ألف فم، وفى كل فم ألف ألف لسان، يسبح لله تعالى بألف ألف لغة، كل لغة لا تشبه الأخرى، وهو ينادى: اللهم يا من ألف بين الثلج والنار، ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، فتقول الملائكة «آمين».

وتستمر القصة على هذا النحو من الوصف الخيالى المثير حتى يلتقى الرسول صلى الله عليه وسلم بعزرائيل قابض الأرواح، فيجدها الراوى فرصة لأن يسأل السؤال الملح، وهو كيف يقبض عزرائيل وحده أرواح الناس جميعا. يقول الراوى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: «وإذا أنا بملك عظيم الخلقة، جالس على كرسى من نور، وعن يمينه لوح وعن يساره شجرة. وهو تارة يحد النظر فى اللوح وتارة فى الشجرة. وحوله ملائكة غلاظ شداد بعدد التراب وهم يسارعون إلى أمره ونهيه، فلما رأيته ارتجف قلبى وطار لبى، فقال جبريل: يا محمد لا تفزع منه، أتدرى من هذا؟ قلت: لا، قال: يامحمد هذا هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخرب الدور، ومعمر القبور، هذا الملك الموت هو ومالك خازن النار، ملكان فظان غليظان، لا يضحكان إلى يوم القيامة. أدن منه وسلم عليه. فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد على السلام. فقال له جبريل: ألاترد السلام على سيد الخلق وحبيب الحق محمد حبيب الله، فلما سمع عزرائيل كلام جبرايل وثب قائما على قدميه واعتذر منى وهنأنى بالكرامة من الله تعالى قال: أبشر يا محمد فإن الخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم يا أخى عزرائيل: كيف تقبض الأرواح وأنت فى مكانك؟ قال: اعلم يامحمد أن الله أيدنى بخمسمائة من الملائكة، فإذا بلغ العبد أجله واستوفى رزقه، أرسلت إليه أربعين ملكا يعالجون روحه من العروق والعصب واللحم، ويقبضون روحه من رؤوس الأنامل، وينقلونها إلى الركب ويريحون الميت ساعة. ثم ينقلونها إلى الحلقوم فأتناولها

وأسلها كالشعرة من العجين، وأقبضها بحربتى هذه.. قلت: وكيف تعرف إذا حضر أجل العبد؟ قال: يا محمد، ما من عبد ولا أمة إلا وله فى السماء بابان، باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه وهذه الشجرة التى عن شمالى كل ورقة مكتوب عليها اسم صاحبها، حتى إذا قرب أجل العبد اصفرت الورقة التى عليها اسمه فتسقط على الباب الذى نزل منه رزقه، ويسود اسمه فى اللوح المحفوظ، فأعلم أنه مقبوض، فانظر إليه نظرة فيضعف جسده ويقع فى فراشه مريضا، فأرسل إليه من عند الله أربعين ملكا يعالجون روحه، ويهبط إلى العبد ملكان من السماء فيقف الواحد عن يمينه والآخر عن شماله، فينادى الملك الموكل بعمله: أيها العبد عظم الله أجرك فى مصيبتك، فقد طويت صحيفة عملك، فلا يصعد لك عمل إلى يوم القيامة، يعنى لا من حسنة ولا من سيئة تنقص، وينادى الملك الموكل برزقه: أيها العبد عظم الله أجرك فى نفسك،فقد طويت صحيفة رزقك فلا ينزل لك رزق إلى يوم القيامة. فعند ذلك يشخص بصره إلى السماء فتصفر الورقة لذلك، فإذا نظر إليها بكى، وإذا بكى سقطت الورقة وأغلق البابان».

ثم يقابل الرسول عليه السلام الأنبياء فى طريقه إلى السماوات العلا، ولم يبق بعد ذلك إلا سدرة المنتهى، فيقول: «ولم أزل سائرا حتى اخترقت سبعين ألف حجاب من الاستبرق، وسبعين ألف حجاب من السندس الأخضر، وسبعين ألف حجاب من الضياء، ثم انتهيت إلى حجاب الدخان، ثم إلى حجاب الثلج، ثم إلى حجاب البرد، ثم إلى حجاب الجبروت، ثم إلى حجاب الملكوت، ثم إلى

حجاب الجلال، ثم إلى حجاب الجمال، ثم الى حجاب القدرة، ثم إلى حجاب الهباء، ثم إلى حجاب البقاء، ثم إلى حجاب السلطان، ثم إلى حجاب الوحدانية، ثم إلى حجاب العظمة، وإذا النداء من قبل الله ياملائكى ارفعوا الحجب التى بينى وبين حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم.

ونكتفى بهذا القدر من قصة المعراج التى كثرت نصوصها وكان لها تأثيراها فى «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى، وكذلك فى رسالة «التوابع والزوابع» لابن شهيد فلما وصل كل هذا التراث إلى الغرب أثر بدون شك فى ملحمة «دانتى» الخالدة «الكوميديا الإلهية»، على نحو ما وضحه دارسو الأدب المقارن.

(١٠)

ثم نأتى فى نهاية المطاف إلى النص الذى يروى اليوم فى الاحتفال بالمولد النبوى وفى غيره من الاحتفالات الدينية، ويختلف هذا النص عن النصوص المدونة التى سبقت الإشارة إليها، مما يدفعنا إلى القول بأن الرواة اعتمدوا فى هذه الرواية على خيالهم أكثر من اعتمادهم على النص الأصلى للسيرة، أو على النصوص المدونة الأخرى، إذ لم تكن الأحداث التى روتها السيرة وألفها الناس هى التى تثير مشاعر الجماعة، بل هى الإضافات التى تنبع من وحى مشاعرهم، وتصور لهم كيف احتفل الكون بأسره بميلاد الرسول عليه السلام، منذ أن كان جنينا فى بطن أمه إلى أن خرج إلى الوجود.

وتبدأ السيرة المروية بذكر نسب الرسول عليه السلام كما هو الحال فى السيرة الأصلية، وتتوقف عند حادث حفر عبد المطلب لبئر زمزم، ثم حادث خلاص عبد الله والد الرسول عليه السلام من مأزق تقديمه ضحية للآلهة، حتى تصل إلى حمل آمنة بنت وهب فى الرسول عليه السلام. ولننظر كيف صور الراوى احتفال الكون بأسره بهذا الحدث الجليل.

«وفى أول ليلة من ليالى حمله صلى الله عليه وسلم أغلقت أبواب الجحيم وفتحت أبواب الجنة الرضوانية، واطلع الحى القيوم وتجلى برحمته ورضوانه التجلى العام، واهتز العرش طربا، ومال الكرسى عجبا، وانتشرت الرايات الربانية، وتلألأت الكائنات بالأنوار، وتنكست على رؤوسها الأصنام، ونطقت دواب قريش بالمقالات العربية، وقالت حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، فهو إمام الدنيا وسراج الأنام، وفرت وحوش المغارب بالبشائر القولية، وبشرت حيتان البحر بعضها بعضا بظهور مصباح الظلام، ونادى لسان حال الكائنات جاءنا اليسر بعد الشدائد العسرية».

ولا يقتصر الاحتفال على هذه الظواهر، بل إن الأنبياء جميعا بلغوا بهذا الحدث الجليل وظهروا للمشاركة فيه. وإذا كان الحمل قد دام تسعة شهور، فإن الأنبياء ظهروا على التوالى، ابتداء من آدم حتى عيسى، كل واحد منهم فى شهر، وكان كل نبى يبشرها بما اشتهر به أو عرف عنه، فإذا كان آدم قد أذنب فهو يبشرها بشفيع المذنبين، وإذا ارتبط نوح بالسفينة فهو يبشرها بسفينة العلوم اللدنية، كما يبشرها الخليل إبراهيم بأنها حملت برسول دين الحنيفية، وإذا

كان إسماعيل أبا العرب فهو يبشرها بأنها حملت بأفضل من نطق بالعربية، وإذا كان الحديد لان لداود فإنه يبشرها بأنها حملت بمن كانت الجوامد في يده لينة طرية. وعلى هذا النحو يبشرها موسى بأنها حملت بطور التجليات الإلهية، كما يبشرها عيسى الذى عرف بطهره وتبتله بأنها حملت بأفضل من حج وصلى وصام، وتهدف الرواية بطبيعة الحال إلى أن تشير إلى أن محمدا عليه السلام سيجئ إلى الدنيا وهو يحمل فضائل الأنبياء جميعهم، كما يحمل كل ما منحهم الله تعالى من قدرات.

ثم يحين وقت الولادة. وهذا المقام يليق بحضور النساء الطاهرات بالإضافة إلى حوريات الجنة، كما يحضره جبريل مع نفر من الملائكة. فإذا اجتمع كل هؤلاء وحانت لحظة الميلاد، تدلت الكواكب وأضئ الكون.

«واشتد بأمه الطلق بلا وجع ولا أسقام» وكانت السيدة فى منزلها فدخلت عليها النسوة الحوريات ومعهن آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، فبدأنها بالتحية والسلام، وأقبلت حواء فى جماعة، وجاءت سارة الخليلية، وهن يهنئنها بأحسن تهنئة. وفتحت أبواب السماء ونزلت الملائكة الروحانية، وأقبل الأمين جبريل فى كوكبة من الملائكة وبيده ثلاثة أعلام، ودقت طبول الأفراح فى السموات والأرض، وعبقت روائح الطيب بين العوالم الجبروتية، وتعطر الملأ الأعلى بعنبر لحظات أوقاته العظام».

«ولما بدا من بطن أمه كالشمس البهية، سقط على يد أم عبد الرحمن بن عوف، أحد البررة الكرام، فسجد لمولاه على الأرض، وأومأ بطرفه إلى السماء العلية، ثم عطس فقال الحمد لله رب

العالمين، بفصيح العربية، فقالت له الملائكة يرحمك ربك ياخير الأنام، ثم غشته سحابة من النور فأخذته الملائكة فغيبته عن أمه ساعة زمانية، وطافوا به جميع الكائنات، فعرفه أهل السموات والأرض، وكل منهم فى محبته هام، ثم ردته الملائكة إلى أمه وهو ملفوف فى ثياب خضر سندسية، وملك يقول: ياعز الدنيا وياشرف الآخرة، من قال بمقالتك، وشهد شهادتك، حشر تحت لوائك يوم الزحام».

وبهذا يكون الكون كله قد احتفل بالرسول عليه السلام منذ أول يوم حملت فيه أمه إلى بعد أن خرج من بطنها إلى الدنيا.

وتنازعت الظواهر الكونية رضاعته، فقالت الملائكة: ربنا مرنا أن نحمله إلى السموات ونقوم بتربيته حق القيام. وقال الغمام: ربنا مرنا أن نحمله معنا إلى جوانب الأرض الشرقية والغربية. وقالت الوحوش: ربنا مرنا أن نحمله إلى أوكارنا. وقالت الطيور، ربنا مرنا أن نحمله إلى أعشاشنا ونلتزم بكفالته حق الالتزام. فخرج النداء بلسان حال القدرة الإلهية: معاشر الخلائق، قد جعله الله رضيعا لحليمة، فكان لها بذلك الحظ الأوفر والاعتناء».

وربما كان هذا هو الجزء الأكبر من السيرة الذى لونه الخيال الشعبى بتصورات فريدة. وتستمر السيرة بعد ذلك مستغلة كل ماروى فى النص الأصلى من أخبار معجزة، سواء فى أثناء إقامته عند حليمة أو فى أثناء رحلاته مع عمه أبى طالب، حتى زواجه من خديجة، ونزول عليه الوحى عليه بعد ذلك. ولاتخلو الرواية من جزء من قصة الإسراء والمعراج التى سبقت الإشارة إليها. ولا تسرف الرواية بعد ذلك فى حكاية صراع قريش مع الرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين، كما لا تذكر مغازيه. ذلك أن هذا الجزء

التاريخـى لا يهمها بقدر ما يهمها وجود الرسول عليه السلام المعجز.

هذه هى الرواية الشعبية للسيرة النبوية. ومن المتفق عليه أنها لم تكتمل على هذا النحو إلا فى عصور متأخرة نسبيا. ولكن روايتها أصبحت بعد ذلك جزءا من حياة الشعوب الإسلامية. وتكثر هذه الروايات بصفة خاصة فى مصر. وقد رأى بعض علماء مصر منذ زمن أن هذه الروايات قد «حشيت بقصص ضعيفة السند، لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته فى صورته الصحيحة»[1] ومن ثم فقد دعا وزير الأوقاف محمد نجيب الغرابلى فى عام ١٣٥٣هـ أهل العلم إلى وضع صيغة جديدة للمولد، يراعى فيها تحرى الأخبار الصحيحة، وقد قوبلت دعوة وزير الأوقاف بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية. ولم يعارضه من رجال الأدب والرأى سوى الدكتور طه حسين، قال له فى رأيه الذى نشره فى جريدة الوادى فى عدد أول أغسطس سنة ١٩٣٤، ضمن ما قال: «وأى بأس على المسلمين فى أن تتحدث إليهم قصص بهذه الأحاديث الحلوة العذاب فتنبئهم بأن أم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبى، كلها يريد أن يكفله، ولكنها ردت عن هذا لأن القضاء سبق بأن رضاع النبى سيكون إلى حليمة السعدية؟ وأى بأس على المسلمين أن الجن والإنس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبى، وأن الشجر أورق لمولده، وأن الروض ازدهى لمقدمه، وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم؟ لم تصح الأحاديث بشئ من هذا، ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا ويرون فى التحدث به

(١) زكى مبارك: المدائح النبوية ـ دار الكتاب العربى ص ٢٥٠.

والاستماع إليه تمجيدا للنبى الكريم لا بأس به ولا جناح فيه. وأى بأس على المسلمين فى أن يسمعوا أن نفرا من الملائكة أقبلوا إلى النبى وهو طفل يلعب فأضجعوه وشقوا عن قلبه وغسلوه حتى طهروه ثم ردوه كما كان، وأقاموه كأن لم يصبه مكروه؟ لم يصح الحديث بهذا ولكن المسلمين يتحدثون به ويستمعون له منذ أكثر من اثنى عشر قرنا، لم يفسد لذلك ذوقهم ولم يضعف إيمانهم.. إن من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى فى القصص البرئ، وإن من فساد الذوق أن لايباح للجماعات إلا الحق الذى لا حظ للخيال فيه. إن من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين[1]».

وهكذا ستظل السيرة النبوية العطرة خالدة فى قلوب الشعب الإسلامى. والشعب الإسلامى لا يكف عن التعبير عن علاقته الروحية بها فى الاحتفالات الدينية المناسبة لذلك. وإذا كانت السيرة قد ثبتت القيم العليا للمثال الإنسانى الأعلى، الرسول عليه الصلاة والسلام، وهى تلك القيم التى جعلت الناس يلتفون من حوله فى شدة فى حياته وحول سيرته العطرة بعد مماته، فإن النماذج البطولية التى أحياها العقل العربى فى قصصه البطولى الذى كان يروى فى الظروف التاريخية التالية لذلك، كانت تحاول جاهدة الاقتراب من هذه القيم المثالية التى تحلّى بها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

ولاغرابة فى هذا إذ كانت هذه الشخوص تجسيدا للرغبة الملحة فى نفوس المسلمين وعلى الامتداد التاريخى فى الحفاظ على الكيان القوى للدين الإسلامى والأمة الإسلامية على النحو ماسنرى فيما بعد..

(١) المرجع السابق، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.